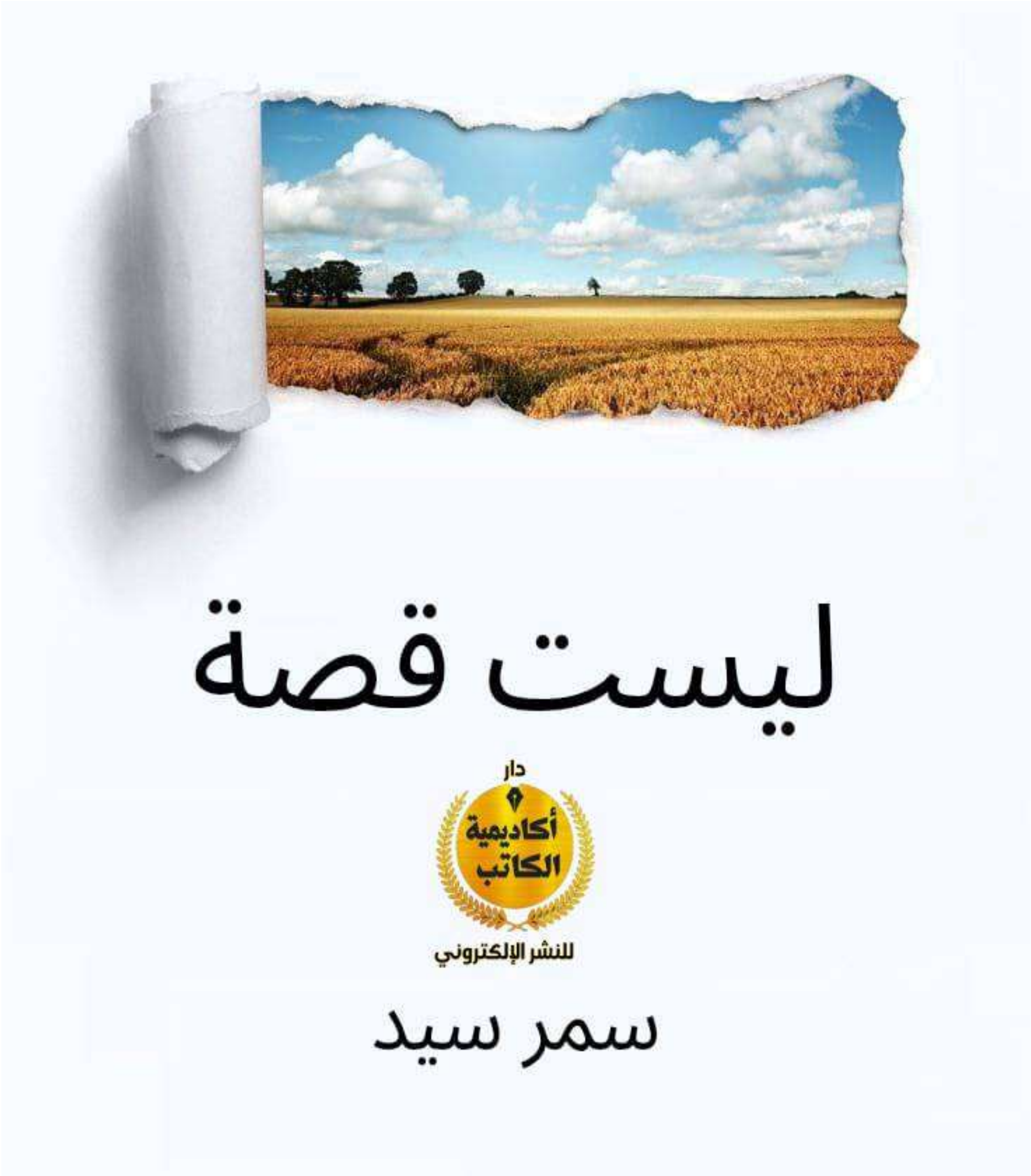
ليست قصة
دار
أكاديمية الكاتب
للنشر الإلكتروني
سمر سيد

ليست قصة

أقاصيص

سمر سيد

دار اكاديمية الكاتب للنشر الالكتروني

رئيس مجلس الإدارة: محمود كمال

المدير العام: محمد حسن

الطبعة الأولى

الكتاب: ليست قصة

المؤلف: سمر سيد

تصنيف الكتاب: مجموعة قصصية

تدقيق لغوي: محمد حسن

المقاس١٤* ٢٠

الترقيم الالكتروني EBIN : 221-250-07-02

التليفون : ٠١٠٩٧٤٤٣٧٠٠ –٠١١١٢٣٥٧٤٧٣

Email:alkatebacademyforpublishing@gmail.com

موقعنا على فيس بوك: دار اكاديمية الكاتب للنشر الالكتروني

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء

إهداء إلى كل إنسان استطاع أن يضع الحب في قلوب من حوله، في أزمنة ضاعت بها كل المشاعر ولم يتبقَّ منها سوى الأسوأ.

مقدمة

حين نحب نرسم على الهواء ملامح من نحب ونلونها بألوان غير موجودة لتصبح مرئية، فيأتينا الهواء مُحمّل بملامحه فتلامسنا ونتنفسّها، فيصبح هو من يعطينا الحياة وليس الهواء. حين نحب نرى القمر أكبر لاتساع ما فينا؛ يتسع اتساعاً يجعل مِن قلوبنا كوكباً هائلاً، ودمائنا شلالات نسائم، وعيوننا نجوم تتلألأ في ظلمات ليلٍ، وراحات أيدينا بحار محلاةٍ بالسكر.

تتداخل المشاعر كما تتداخل الأوراق في زهرةٍ، أو كما تتداخل ألوان الكون على ريش عصفور. فتكون تلك المشاعر جمرات مشتعلة وجداول، أعاصير رعدية ونسائم، بُكاء يملأه فرحة أو فرحة بكاءة حزينة. ويا لما يفعله بنا الانطباع الأول! الوهلة الأولى، نبرات الصوت ولهفة المواعيد، انطلاق الأسى وبُعد المسافات. دعوات القلب، وشرود العيون، إفلات سكون قلوبنا، وامتلاك ضجيج غير مسموع. يا لصعوبة المحاولات! ويا لصعوبة التوقف عنها!

آه وآه، فلولا بُعد المسافات لفضحتنا العيون. فننادي على الأيام ألّا تسرعي، لماذا تسرعي وتجبري العمر على النقصان؟! فما زلت أنتظر رؤية تلك العيون، وإن انكشف المستور! ما زلت أحلم أن يُخمَد الحنين وإن خاب ظني، وبرؤيتها ازداد شوقاً وحنينًا. فلا تنتهي يا أيامي قبل أن أنجو من تلك المتاهات.

للحب مسارٌ آخر غير المعهود، فليس لكل حبٍ كلمات، فمن الممكن أن يكون حب أخرس صامت ولا يُجيد الايماءات. حبٌ لا ينال من قرب المسافات قسطًا وافراً ولا حتى قسطًا ضئيلًا. يسير في مساره إلى اللّاشيء، لكنه موجود.

أقصوصة؛ ما الحب؟

لا أدري كيف وصفت تلك السيدة التي فارقت الحياة مؤخراً، والتي لم تكن تهتم إلا بأولادها الخمسة؛ الحب بكل هذه الدقة وبكل هذه التعريفات.

حين قرأت تلك القصة الصغيرة المتروكة منذ سنوات حتى تأتي لي كي اكتشف مقدار ما كانت تشعر به، كانت تكتب وتعيش كل ذلك بينما نحن نتأرجح مُنّعمين بين أيديها، وننعم بالدفء بجانبها؛ ولم نلتفت مرة واحدة على الإطلاق كي نفهم أن هناك إنسان ربما يحلم هو الآخر بأرجوحة بين يدين حنونتين، وبدفء يقترب لأنفاسه، وكل ما كتبته -والذي أتاني كي أقرأ- ما هو إلا أمي التي لم أكن أعرف عنها شيئًا، وها انا قد عرفتها من تلك الأقصوصة.

أقصوصة لقلب ذهب إلى الخيال وعاش فيه طويلاً، حتى عاد بوهم لم يفارقه؛ إلى أن انتقلت إلى حياة ربما كان الخيال فيها هو الواقع والواقع هو الخيال. مشاعرها لم تكن قط من هذا العالم الذي أتى منه أبي، حتى نحن كنا قريبين نعيش في نفس البيت ولكننا لم نشعر بها، وإن انتبهنا ربما كنا صنعنا حياةً تُرضيها وتُسعدها، ولكنها اختارت أن تعيش الحياة كما تمنّتها على أوراقها، حتى بات الورق بيتاً دافئًا يليق بأوهامها، وربما أرادت أن تعيش عمرها بلا ذاكرة حتى تنفرد بأوهامها هناك.

((أنا))

مثل العائد من نوم عميق امتد عشرات السنوات، عاد ليعرف معنى للحياة لم يكن موجودًا قبل نومه العميق، وشخوص بصفات جديدة؛ كأنّ طفرة جينية عصفت بالبشر. كما أن الطرق المؤدية إلى نفس الأماكن وبنفس الخطوات

أصبحت متأججة بالآمال، والابتسامات الضائعة عادت وأصبحت ضحكات عالية، أمنيات جديدة بقلب جديد يدعو الله بإيمان جديد، وحب للدنيا، للحياة. أرى جناتٍ خضراء وأنهارًا على مرمى البصر؛ كل تفكير وكل تأمل لتتولد ذكريات جديدة في عقل لا يوجد به أية ذكريات، بمشاعر لم تنضج بعد، لكنها تبدو مشاعر حب؛ حب من نوع جديد كحب الفراشات لزهورها، وحبنا نحن لألوانهم، وأيامٍ جديدة بدقات الساعة المعتادة ولكنها لا تعبر عن عمر حقيقيٍ، ولا نستطيع أن نصفه بالعمر المزيف.. هو العمر الحقيقي الذي بدأ تقويمه منذ أن برئ من العمى.

أسئلة عن الحب وربما تكون بلا إجابة:

- هل من يحب يكون على درجة عالية من الغباء أم على أعلى درجات الاندفاع؟

- هل هو مريض بشيء ما أم هو بالفعل مريض ولكن بشخصٍ ما؟

- هل لديه عقل يفكر أم استبدله بالمشاعر تمامًا؟

- وهل من الممكن أن ينجو من حماقات نضوب تفكيره؟ أم سيملأ الدنيا بالحماقات؟

كلها أسئلة ربما لا نجد لها إجابة، وسنظل نسألها طالما استمر وجودنا.

فأعاننا الله على ما خلقه فينا.

((البداية))

كانت البداية عندما وجدت فرحة نفسها تكتب لمن تحب أجمل الكلمات دون أن يبادلها شيئًا سوى قراءته لها؛ فتساءلت "ماذا يعني أن تقول لإنسان من بني البشر المعروفين بالهمجية أجمل الكلمات؟"

فأتاها الرد من نفسها قائلة:

- يعني أن الدنيا أوجدت نوعًا آخرًا من البشر قادرًا على أن يعطينا إفرازات من نوع خاص نادراً ما يفرزها البشر. وكأنه خلية نحل تنتج الشهد؛ فتراه لا يعطي لغيره من سائر الكائنات من حوله إلا أرقّ ما يمكن أن يُعطى. ربما تجده امرأة أو طفلاً مازال لا يعرف سوى الجمال، فلا يستطيع أن يقول غيره وذلك بالشيء العادي. ولكن إن وجدته رجلاً، فإنه يجعل من الحقائق تخاريف، ويجعل الطبيعة وكأنها ازدادت سحراً وجمالاً من خالقها، ويُظهر من النظريات أصعبها؛ حينها فقط من الممكن أن تخرّ قواك أمام هذه الرقة غير المعهودة وكأنه المجهول، ومن منا لا يقف يستجمع قواه أمام المجهول. ولقد أسهب العلم بالكثير من المعلومات عن العيون، ولكنه أغفل حقائق كثيرة عنها، وأنا من اكتشفتها ولكنها صعبة الشرح. وأجد نفسي استقبل نبرات صوت ذلك الكيان؛ فتتجسد بداخلي كل الأحاسيس التي غنت بها فيروز، وكأن صوته قادم إليّ من السماء مثلها، وعرفت بعدها أن في الندرة عموم، وفي القلة كثرة؛ كأنّني وسط شلالات تندفع مياهُها من حولي لتغمرني من كل الاتجاهات؛ فتتقلص كل رغباتي في الحياة إلى رغبة واحدة وهي أن أظل أستمتع بإبحاري في تلك الشلالات التي تنساب بمسافات وتستقر مسافات، فأنسى وسط كل ذلك أن هناك همجية ووحشية بين هؤلاء البشر، وكأنه سفير خُلقَ ليدافع عنهم

ويُحسّن من أفعالهم، وعلى البشرية أن تشكره وترفع له قبعتها، وتنحني أمامه تواضعاً للفارق الكبير من السنوات الضوئية بينه وبينهم. وأظل أحاول استجماع قواي أمام هذا الكيان، ليتملّك العقل مني، وأن أكف عن الكتابة له ولكن بلا فائدة. وإن استطعت فذلك يحدث فقط حين أغفو في عالم آخر بعيد عنه، وأظل أسأل نفسي "هل أحبه؟ وإن كنت كذلك.. فبأي نوع من الحب أحبه؟ فنحن بني البشر لدينا أنواع كثيرة من الحب!" وبعد تفكير طويل، وربما لم يكن من الأساس تفكير، أجد نفسي أقول إني أحبه بكل أنواع الحب التي امتلكتها البشرية والتي سوف تمتلكها.

واستمرت فرحة في السؤال:

- وماذا لو تحولت المشاعر لضوء، فكم ستكون قوة الحب به؟

- لماذا اتُخذت الورود رمزاً للحب؟

- لاحتضان أوراقها بعضها لبعض مثل من طال غيابه وعاد.

- ولماذا دائماً ما يكون الألم مصاحباً للحب؟

فكرت وقالت:

- لأنه أحياناً يكثر به الأمنيات، وكثيراً لأنه حب مستحيل بلا أمنيات، وأننا حين نحب نظل نبحث في الكلمات عن كلمة يهدأ بها قلبُنا؛ فنجد ولا نهدأ، ونظل نبحث بين ألوان الأزهار عمّا يمكن أن يُروى وما يُقال بأذهاننا ونبضات قلوبنا، فنجد الألوان التي نرسلها في كل زهرة تقول ما يحدث فينا نيابة عنا، ولا نهدأ.

فماذا يُقال إذاً حين نحب حتى نهدأ؟!

وماذا يفعل الحب بكياننا ليجعلنا من الصعب أن نهدأ؟!

((الفرحة))

بدأت الفرحة حين فرت منها راكضةً، فرحةً وهي تسمع نبرات صوته الحانية، فقد كانت مكالماته لها هي لقاءها به.. فمن دون أن يقصد ألقى في قلبها حبه، وقد زرعت هي في قلبها شجيرات حب له، كانت تنتظر مكالماته، وجدت في صوته رقة أجنحة العصافير وقلوبها، وجدت في فتات تفاصيل حياته حنان قلوب الأجداد كلهم، فلم يترك لها سبيل سوى أن تحبه.

تغيرت حياتها كما يتغير لون السماء من الليل إلى النهار؛ أصبحت تسير على الأرض ولا تلمسها، تسمع كل الأصوات ولا تنصت إلا لأجملها، كانت تؤدي كل أعمالها ولكن من دون وجودها الحقيقي والكامل، فقد كان وجودها الحقيقي في أجواء صنعتها في نسيج خيالها، وفي ذلك النسيج كانت تقول له صباح الخير ويسمعها، وتعترف له بحبها فيصدقها، تعد له أجمل الأصناف فيأكلها، وتطلب منه العون فيدعمها، كانت تحتضن كلماته وتتقن فك شفرات نبراته، كان حيًا بخيالها. ملأ حياتها بالحنان التي فقدته ولكن في آفاق بعيدة يصعب أن يصل لها الخيال فابتعدت كثيراً عن الواقع.

((اجتماع))

ذات يوم أرسلت له رسالة من رسائلها التي كانت تحمل كل معاني الحب من دون أي كلمة حب؛ فلم تتلق إجابة ولا حتى وضع قلب على الرسالة كما المعتاد؛ فملأها الألم، أصبحت هي الألم على شكل إنسان، وهي التي كان يُفرحها هذا القلب على الرسالة ولا شيء دون ذلك، فهي كانت تعرف أنه من

المستحيل أن يحبها، كيف يحبها وهي لديها طفل -ومن المؤكد أن كل حبها له- ، وإن لم يكن لديها هذا الطفل، فكيف يحبها من دون أن تضع المعاملات تأثيرها؛ فمن المؤكد أن الحب لا يأتي من مجرد مكالمات ورسائل تليفونية، فهما لم يلتقيا من قبل، والرجال من الصعب أن يقعوا في حب امرأةٍ غير ملموسة، تعطي لهم ما يريدون من أحاسيس يتمنوها.

فكان على مشاعرها أن تجتمع كي تضع حلاً يُوقف الألم الذي يملأها، اجتمع الضعف، والحب، والحنين، وعلى رأسهم القوة، فترأست القوة الاجتماع وألقت كلماتها:

- لابد أن تستجيب لي، ولي وحدي فلتذهب أيها الضعف عنها.

قال الضعف:

- ما لي حيلة معها، إنه قلبها، قد امتلأ بالحنين إلى ذلك الصوت، ذلك الإنسان الحنون، فهي قط لم تجد الحنان، وقد اجتمعنا بعد فوات الأوان.

فردت القوة:

- لا، لم يفت بعد الأوان، علينا جميعاً اكتشاف ما علينا فعله، لا ينبغي أن نتركها وحدها مع قلبها وقد تنحى العقل جانباً، لابد أن ننتشلها من الجنون، أنا أعرف جيداً قوة الجنون؛ لن تكون أبداً أمينة عليها، فنحن مشاعرها الحقيقية، وعلينا واجب لها لا بد أن نؤديَه، ولها الحق فينا، لا بد أن نلحق بها في رحلة حبها تلك؛ التي من المؤكد أنها سوف تجرها إلى الهلاك.

فاجتمعوا على أن يذهب كل واحد منهم ليفكر في حيلة، وكان عليهم جميعاً أن يقتربوا أكثر منها حتى يستطيع أي منهم إنقاذها من أمر يوشك أن يؤلمها. فتفرق الجميع وبقي الحنين مكانه لم يستطع أن يتحرك، وقد شعر بالذنب برغم

أنه قد ازداد توهجاً وحمرة بسبب ما كانت تشعربه، فأخذ يفكر عما يمكن أن يفعله، فهو الحنين ولا يستطيع أن يكون غير ذلك، فانكب على وجهه وترك مكانه وسار محتاراً في أمرها، حزيناً عليها، فهو يعرف أنها تحب دون أمل، فإنها تحب من لا يناسبها؛ ومن المستحيل أن يبادلها حباً، وأبداً لن يتولد بداخله حنيناً لها، كيف تشعر تجاه وهمٍ؟ هل للوهم ذكريات نحنّ بها له؟! وذهب الحنين إلى وجهته مختاراً، متألماً لها.

((ما الحب؟))

كانت فرحة تحب الكتابة، وقط لم تكتب عن الحب، ومنذ أن عرفت ذلك الكيان، ذلك الصوت، أصبحت لا تكتب إلا عن الحب. استنفذت قدراتها كلها كي تفهم ما الحب وماذا يفعل بها، كيف له أن يسحقها بهذا الشكل المخيف، فأصبحت لا تعبأ بأي شيء سوى التزامها بأجواء صنعتها بأيديها لتبقي مشاعرها ساكنة لا تتغير، كانت تخاف أن تأخذها فكرة أو شعور بعيداً عنه فتنساه لحظة؟ وبدأت في وضع تعريفات عن الحب كلما شملها بقوته التي لا دلالة لها سوى تبدل الأحوال. فعرفت أن للحب أنفاس دافئة ببعض الأوقات، وأوقات أخرى مليئة بأعاصير باردة، ونادراً ما كان يحتضنها بحنان، وقليلاً ما كان يسمعها؛ فألقت نفسها في تعريفات الحب التي لا نهاية لها في دفتر دائماً مفتوح وسطوره قابلة للزيادة، وكلما كتبت تعريف آتاها آخر، لنبدأ، ما الحب؟

- الحب هو أن تعشق السماء كأنها قريبة وأمواج البحر كأنها حنونة والسنوات كأنها أحضان رحيمة.

- الحب هو أن ترى الحياة جميلة وأن تتعجب ممن يراها غير ذلك.

مرة أخرى، ما الحب؟

الحب هو أن تكون طفلاً بريئاً رغم امتداد السنوات، وأن تكون رقيقاً مهما رأيت من قسوة. الحب لا يحتمل أن يكون لديك أجمل المشاعر وعكسها، هو فقط أجملها. وأن تظل تتحدث مع من تحب رغم أنه غير موجود، ترى الدنيا بعيونه وتتنحّى عيونك. الحب هو أن تكتب رسالة للحياة يكون هو عنوانها ومشاعرك هي كلماتها. الحب مكان مرسوم في خيالك لا يعرفه إلا أنت. الحب هو أن تنتظر شيئاً لا تعرف ما هو، وأن تنسى كل ما تعرفه. الحب هو أن تحب عمرك كأنه عيون طفل صغير لا يرى سوى الملائكة. هو دفء الشمس ودليل القمر وتألق النجوم في سماء ساحرة. هو الألحان التي تفطر القلب من جمالها. الحب هو ألّا تشعر بخوف ولا ببرد ولا ينتابك سوى هذا الخفقان الذي يشعر به القلب عندما يقف مرتجفاً بذنبٍ أمام عرش مَلَكه. الحب حيرة في الأمور كلها، وحسمٌ يأتي في فتور ليقول كلمته فيُلقيك في ظلامٍ؛ فلا تحتار ولا تحسم.

- الحب هو أن تستشعر معنى الحياة الجميل الذي لم تشعر به من قبل. وتعرف أن إدراكك كان بعيداً كل البعد عمّا أدركته.

-الحب هو أن يأتيك الخيال برد على ما تكتب من أشعار ومكنونات كتاباتك.

- الحب هو أن يطوف في آفاق كتاباتك من تحب، حتى وإن كتبت في السياسة وفن الطهو ومغامرات ما وراء الطبيعة.

-الحب هو أن تعلن إفلاسك من كلمات الحب وقد استنفذتها. وأن كلمة كحبيبي بعيدة كل البعد عن المعنى، وأن اسلوب تعبيرك عن الحب أصبح ركيكاً بجانب كل ما تتمنى وتسعى أن تقول وتكتب.

تشرد فرحة رافعة عينيها إلى السماء المفتوحة وأضواء الليل المبهرة، لتظهر أمامها عيون اشتاقت لها، فوجدت نفسها تعيد عينيها إلى السطور منتظرة ومتلهفة للمزيد، فتعود لتكتب، ما الحب؟

ـ الحب هو أن تدرك الدنيا بعيون من تحب، وكأن عينيك قد تنحيتا جانباً تقديراً وتوقيراً لتلك العيون.

ـ الحب هو أن تستعيد روحك، وأن تحب ذاتك وتكتشف أسرار حالك.

ـ الحب هو أن تنتمي لإنسان كأنه الوطن.

ـالحب هو أن تحب لتنتهي مشاعرك وتفاجأ أنها لا تنتهي.

ـالحب طريق غير مفهوم موقعه، ولا ندري كيف ومتى سلكناه، تكثر به ساعات الليل المظلمة وتشتد به حرارة الشوق الحارقة، ونظل نسير.

استفاقت فرحة فجأة على صراخ طفلها الصغير البالغ من العمر ست سنوات، لتعود إلى واقعٍ يأخذها من رحلتها في عالم الحب وتفاسيره، أفاقت على واجبات مستمرة كأنها إعلان استقلال دولة، وعلى المحتل الرحيل. تركت خيالها على وعد بلقاء آخر فوق سحابة، ربما تصادف أن تسير فوق بيته، بيته القريب ولكنه بعيد بعد قارتين يفصلهما قارات أخرى، ومحيطات وربما كواكب ومجرات. ذهبت وتركت صوته يتحدث في رسالة صوتية على هاتفها؛ كانت تأنسها وتأخذها من يديها حتى أبواب السحاب.

((ألم الذكريات))

جلست مُختلية بنفسها لتجد نفسها تتذكر قصة زواجها، والتي يمكن تلخيصها في كلمة واحدة بين قوسين؛ وهي (التخلي). كلمة تصرخ بسرد ما حدث.

فكيف لأب يترك طفله وزوجته كي يعيش في رحاب امرأة مهما بلغت من غنى وجمال؟! كيف فعلها؟! كيف تخلّى؟!

عاشت فرحة سنوات من الأذى مع زوجها، الذي كان مثل النيازك النارية التي ترتطم بالأرض تاركة مكانها فجوة مشتعلة؛ كان مثل الأعاصير التي تقتلع هناء البيوت، وثمار الأشجار، وأزهارها. كان أجوف، كلما ألقت فيه من اهتمام وحب وحنان لا يمتلئ، كان مثل الحصاد الفاسد الذي ضاع فيه تعب من زَرَع، وأهدرت فيه الأرض خصوبتها، وأمام كل ذلك صمدت أمامه وأمام حزنها الثائر، الذي طالما وضع خططاً لتعاقبه، ولكن دون جدوى، وفجأة قابلت الجنة المحرمة؛ ولكنها قابلتها، فشعرت بجمالها؛ كأنها مكافأة على الصمود، أو عوضًا عما فقدت، الآن هي تحب. وقد كفرت بالحب لسنوات؛ وبظهوره عاد إيمانها؛ لتملأ الدنيا بمشاعرها الوليدة وبتعريفات الحب التي لا نهاية لها، فتكمل، ما الحب؟

- الحب هو ألّا تهدأ.

- الحب هو ألّا تستطيع أن ترى سوى الجمال، لأنك لا ترى إلا بعيون من تحب، والتي تحمل نصف الجمال الذي تراه.

-الحب هو أن تجد لنفسك مكانًا دافئًا بعد البرودة ورعشة أطرافك.

- الحب هو أن تضاء حياتك فجأة، كأنك خرجت من منتصف ليلك إلى أجمل نهار.

- الحب هو أن ترى من تحب نوراً كنور القمر، وأن تعرف أنه إنسان مثلك ولكنه يحمل صفات ضوء القمر الذي أبدع الله في خلقه؛ فتمكث أنت على ترقُّب أطواره.

- الحب هو أن تنتمي نظراتك لعيون من تحب ولا ترى سواها، وأن ينقض عليك الوقت إن تأملت غيرها، وأنه لا يمكن أن يكون أبداً حباً إلا لتلك العيون، ولا يكون أبداً حباً إن لم تكن هي منبعه، وأن تظل تكتشف كم هي جميلة كلما أطلت بها النظر. الحب هو حياة أخرى تحياها بجانب ما تحياه.

- الحب هو المعنى الغائب لشروق الشمس وتفتح الورود وانطلاق روحك.

- الحب هو أن تظل تعطي تفسيرات للحب كي تفهم حالك؛ وبالرغم من كثرتها لا تفهم.

- الحب هو أن تظل تكتب عنه، وتظن أن بالكتابة سوف تهدأ، ولكنه مجرد ظن.

- الحب هو أن تسافر روحك من مكان إلى آخر لتبدأ من جديد، آخذة معها حبها، تاركة حزنها.

- الحب هو أن تنهمر عليك المفاجأة بظهور شيء ما أمامك لم يكن متوقعًا، مثلما يحتلك شعور رقيق غير متوقع، يوُقظك الليل ويشغلك بالنهار، يأخذك لخيال ثم يُلقيك بالواقع؛ فتتألم من ارتطامك بواقع يبعدك عنه؛ فتنتظر عودتك للخيال، غير مهتم بذلك الواقع مقدار ذرة. هذا هو الحب. الحب انهمار. الحب ارتطام بعالم مجهول، تبدأ اكتشافه من اللحظة الأولى. الحب انهيار الواقع وظهور بشائر واقع جديد. الحب اكتشاف للروح التي تملكنا ولا نعرفها.

ـ الحب احتلال خيال رقيق لمراكز الشعور. الحب اختناق للحزن، وتحرير البهجة والسعادة. الحب نافذة على النسيم الذي يسير بين الأزهار الحمراء. هو قلب مدرك أنه على شفا انسياب شلال ربما لا يقوى على تحمل انسيابه. الحب هو ميلاد شخص آخر، وهذا الشخص هو أنت ولكنك لا تعرفه.

ـ الحب هو أن تفهم من كلمة ما لم يُمكن أن يُقال، هو أن يُرسم على قلبك ابتسامة ربما لا تَرتسم على وجهك. الحب هو أن تجري بين أشجار تحاول كل واحدة منهم انتزاعك إليها وتبقى أنت محتارًا. الحب هو أن تحاول إنقاذ نفسك من شيء ما فلا تستطيع، ولا تستطيع أن تعرفه. الحب هو أن تحاول برحمة معاملة نفسك، فتأبى نفسك وكأنها تستمتع بالعذاب.

ـ الحب هو أن تظل تكتب عن الحب، وتظن أنك بالكتابة سوف تهدأ. ولكنه مجرد ظن.

ـالحب هو أن تتوه، وأن تكون دائم الحزن والغضب، وأن تأسى على نفسك في غياب من تحب. وإن حضر حولت حالك من حال إلى حال، كما يتحول مجرى نهر ببناء سد؛ فيصبح ويظل من تحب هو سدك الواقي من سوء حالك.

ـ الحب هو أن ترى بعيون من تحب جمال الدنيا، وكأن الملائكة جمعته كله في تلك العيون.

توقفت فرحة فجأة لتهدأ وتتنفس، فقد ازدادت رعشة يدها، وكادت تتوقف أنفاسها، كأنها في سباق مع شيء ما لا تراه. هدأت فأكملت: مرة أخرى، ما الحب؟

- هو أن تختار طريقًا تُنيره بمشاعرك، وأن تملأه برجاء من الغد أن يكون عليه حريصًا، وأن يجعل به سبلًا للسعادة وللنجاح، وأن يغمره أمانًا وسلامة لمن اخترته أن يسلك هذا الطريق.

- الحب هو أن ترتعش يداك دون أن تلمس أي شيء، ويمتلئ قلبك كل دقيقة بشعور رقيق جديد بلا نهاية، وأن تضطرب أنفاسك كأنك رأيت حلماً أخذك لأعالي السماء؛ فلمست النجوم والقمر، ولأعماق البحار لتُقبّل كل الكائنات البحرية، دون أن تحلم بأي شيء.

- الحب هو أن يظهر لك قمرك المكتمل؛ إن أنارت الدنيا وإن أظلمت.

- الحب هو أن تقول أحبك دون أن تقولها.

- الحب هو أن تعيش في زمن يحيطك بوتيرتين مختلفتين من جانبيك، إحداهما سريعة والأخرى متباطئة، فلا تدري أنت لأي زمن مُنتمٍ.

- الحب هو أن يتذوق الإنسان طعم الغرق في دوامة، وأن يُشوش ذهنه بأحلامٍ بين الوهم والحقيقة، وتباغته رغبة في المستحيل.

- الحب هو أن ترسم عيون من تحب لتكون لك جسراً لخيال كأنك تراه.

- الحب هو أن ترسم ملامح من تحب على لوحة من زهور، وأن تعانق السعادة كأنها إنسان عاد بعد غياب.

- الحب هو أن تكون وسط مصاعب وأخطار وقلبك مطمئن وواثق من النجاة بوجود من تثق وتحب.

- الحب هو أن تترك جزءًا من قلبك في كل لقاء مع من تحب.

- الحب هو أن تحمل من تحب في قلبك.

ـ الحب هو أن تخبئ مخاوف من تحب في مكان معزول فلا يراها.

ـ الحب هو أن تتألم بجرح في غير جسدك.

ـ الحب هو أن تأنس بمن تحب حتى في غيابه.

ـ الحب هو أن تعاني من صراع بين العقل والقلب طول الوقت.

ـالحب هو الشعور بأن هناك أشخاص مثل الجنات الخضراء التي تهدي النفس انطلاقًا وسعادةً.

ـ الحب هو أن ترى الدنيا بعيون من تحب حتى في غيابه، وأن يكون قلبك النابض يحيا بأجواء إنسان آخر، ويكون ما بين ضلوعك نسخة منه.

ـ الحب هو الشعور بالأمان، هو الفرحة التي تجعل منا طفلًا يلعب ببراءة، الحب هو المشاعر التي تُنير السهر، وتطمئنا في الشدائد، وتدفئنا في الأعاصير والمطر. الحب هو القوة التي تجعل منا إنسانًا خارقًا لا ينام ولا يحتاج للأحلام. الحب هو أن تبدأ من جديد كل صباح، وترضى كل مساء.

ـ الحب هو حزن منهمر في لقاء خشية لحظة فراق. الحب هو استشعار نبرات الصوت. هو العطاء وإن كنا غير قادرين. الحب هو القوة التي تجعلنا نبحر بدون وسائل أمان. الحب هو السفر في الخيال. هو أن ترجو من الله السعادة لمن تحب وإن غابت عنك السعادة. الحب هو الدعاء. هو أن تفكر كثيراً في إرسال كلمة واحدة وبسيطة. الحب هو الصعوبة الحقيقية للحياة. الحب هو حياة وفناء في تلك الحياة.

ـ الحب هو أن ترى من تحب في كتاباتك، وأن تراه في ملامح من مر بطرقاتك، أن تجده في شخصيات ما تقرؤه من روايات، أن تشعر به وإن لم

ترَه، ألّا يمل ذهنك من كثرة الأحاديث عن ومع من تحب. الحب هو أن ترى جمال الدنيا في إنسان، وإن رأيت في الطبيعة جمالًا استحضرته روحك.

-الحب هو أن تتكلم بلغة الورد والألوان.

- الحب هو أن يأخذك خيالك لمكان غير الذي تأخذك إليه خطواتك.

في وسط انغمارها في عالم الحب الخاطف هذا رجّت قوة العقل ذهنها، فانتبهت فرحة لحنينها لشخص لم ترَه قط، انتبهت لاشتياقها له. فكيف لإنسان أن يشتاق لإنسان لم يقابله حتى ولو لحظة؟! لم تتلامس أيديهما؟! لم يحدث بينهما أي شيء على الاطلاق؟! فلمَ إذاً هذا الحنين؟

بحثت فرحة في أفكارها لتجد إجابة؛ فلم تجد. ولكنها وجدت أن للحب حارس أمين يحرسه إن غفى، يرشده لمكانه إن تاه أو ضاع؛ ألا وهو الحنين، ذلك الجندي المجهول في صراعات الحب وأحداثه، فأعادت القلم إلى مكانه المنتظر على سطور مأهولة بالانتظار، لتكتب عن ذلك الجندي المجهول.

((الحنين))

لدى كل مُحب جندي مجهول يسمى الحنين، فالحنين هو ما يجعلنا نسابق الزمن بخيال اللقاء حتى يأتي، الحنين هو ما يجعلنا ندعو لمن نحب بالحفظ والحماية، وهو من يجعلنا دائماً نفعل أفضل ما لدينا لنكون لمن نحب لائقين، وهو سبب وضع الورود مختلفة الألوان في كل رسالة، الحنين هو الدليل على أنك تحب، وأن تحن لصوته، وتشتاق إلى أن يتشعب في خلايا جسدك لتشعر بسعادة الحياة؛ فيكون لديك نوع آخر من الحياة، وأن تتمنى من الزمن لحظات لقاء، وتكون أقصى أمانيك أن يبتسم وترى الابتسامة تطل من عينيه. الحنين هو

ما يجعلنا نصفح، هو ما يجعلنا صادقين، شفافين لتتضح مشاعرنا كأننا مياه نقية تُظهر ما فيها.

ولو سُئل الحنين ما الحب؛ لقال "أن تكون وطناً يرعى كل المشاعر الرقيقة لمن تحب".

وإن سألنا من نُحب؛ أين أمانك؛ فيقول "ذلك الوطن الذي أستطيع أن أرى فيه كل المشاعر الرقيقة لي وحدي، وإن اتجهت بعيداً يظل لي موطناً وإن لم تطأه مشاعري يوماً".

وحتى نتغلب على الحنين نكتب اسم من نفتقده ونتركه أمامنا موجودًا باستمرار، نذهب لنفس الأماكن، نسمع نفس الأنغام، نتودد لمن يحب ونجلس بصحبته في خيالنا ونتكلم معه بأذهاننا؛ فنصبح غير مضطرين لانتظار حلم من الأحلام نراه به.

((عودة إلى الواقع))

استيقظت فرحة ذات يوم على صراخ ابنها متألماً بمرض ما، فأخذته إلى الطبيب، لتجد الطبيب غير مطمئن لحالته، فطلب منها فحوصات أكثر حتى يتمكن من تحديد وتشخيص حالته، ذلك الطفل الذي يمثل لها كل الواقع، إن الأرض والسماء والضياء خلقوا لهذا الواقع الصغير الذي لا تعرف غيره.

أكملت فرحة كل ما طلبه الطبيب وعادت له كي تطمئن على واقعها، وجاءت الإجابة غير مرضية على الاطلاق؛ حيث قال الطبيب: إن طفلك لديه مرض مناعي نادر يجعل الجسم يحارب ويطارد نفسه؛ فيجب اتّباع خطط صارمة من العلاج، ومتابعة أشد صرامة.

في تلك اللحظة فقط علمت فرحة أن واقعها يناديها بكامل طاقته "عودي يا أمي من الخيال، عودي من الأوهام ومن تعريفات الحب التي لم تثبت صحتها في الواقع، ولا تستطيع أن تقفز من السطور كي تتجانس معه، أنتِ غير قادرة على القفز بين الورق لتعيشي به". علمت أن ما بدأته لابد أن ينتهي. فلا سبيل لأن تضل الطريق؛ إن ابنها في حاجة ماسّة لها، ولا وقت للخيال، ولا لهذا الصوت الذي يحنو عليها من بعيد. لا سبيل لانسيابات أخرى لشلالات من سعادة وهمية، ولا جسور خشبية تُوصلها بالسحاب؛ فلا توجد سحابة تأخذها فوق بيته. إنها أبداً لن تراه. ربما تراه بعد ذلك في حلم من الأحلام، وتظل تنتظر أن يأتيها الحلم مرة أخرى.

أخذت ابنها وعادت إلى البيت ومعها الدواء وخطته الصارمة لتبدأ بها، وليعصف ذهنها بالدقة المطلوبة في أداء مهمتها، واحتضنت ابنها الصغير في صدرها وضغطت بشدة وكأنها تريد أن تحميه بأحشائها مرة أخرى، تحميه من ذلك المرض الذي انقض عليه فجأة دون أن ننتبه لتأخذ ساتراً أو تحتمي بشيء ما، أو حتى تركض بعيداً. واستغرقت في نوم عميق، واستغرق معها ولدها.

((رسالة أخيرة))

آه وآه وآه، فلولا بُعد المسافات لفضحتنا العيون.

أنادي على الأيام ألّا تسرعي، لماذا تسرعي؟! وتجبري العمر على النقصان، فما زلت أنتظر رؤية تلك العيون، وإن انكشف المستور، ما زلت أحلم أن يُخمد الحنين وإن خاب ظني وبرؤيتها ازداد. فلا تنتهي يا أيامي قبل أن أنجو من تلك المتاهات.

يا حبيباً لا أعرفه حينما يأذن لي القدر بلقائك، سآتيك بباقة من زهور التيوليب والقرنفل والنرجس والياسمين. وإن لم يأذن، سأظل آتيك بها في خيالي، ولن أسمح لها ولخيالي أن يذبلا. وبمثلها آتيك في الجنات.

((صوت القوة))

نادت القوة على النسيان، والحنين، الحب، والحزن، حتى اجتمعوا.

قالت القوة: ربما ما حدث اليوم هو السبيل لأن نتنازل عن الخيال وعن الحب الوهمي الضعيف الذي لا أمل فيه. لذلك سأطلب منك أيها الحنين ويا أيها الحب أن تملآ قلبها لابنها فقط، كونا أقوياء، ابدآ أنتما بتغيير المسار، كونا لها مساعديْن. لابد لكما من تغيير المسار إلى ذلك الطفل الصغير؛ فهو الجدير بكما، وليس ذلك الصوت الذي يأتيها من بعيد. اذهبا إلى قلبها، احملا له نبأ ما حدث كي يساعدكما، فهو بالغ الحنان وانا على يقين أنه على أتم استعداد للمساعدة.

بالفعل ذهب الحب والحنين إلى القلب، ونقلا له نبأ ما حدث؛ فتأثر القلب وقال: أسمح لكما بتغيير مسار حبها وحنينها، إن في ذلك الطفل عمرها، وإن حافظت عليه فإنها تحافظ على حياتها.

((عندما يأتي الفراق))

انتبهت فرحة إلى صوت عقلها لأول مرة منذ فترة طويلة، لتعلم أن اتجاه مشاعرها لابد له أن يتغير؛ فباتت النجوم غير متلألئة على الإطلاق، والقمر في طور جديد لم نرَه من قبل، يبدو أنه طور حزين، حتى بدى كوكب الأرض حزيناً أيضاً، فعبست الأمواج وأبت أن تتسارع إلى الشواطئ، حتى الرياح كفّت عن الجري واللعب مع الأشجار، وكفت الأنوار، وساد الظلام، وانتشر

الحزن في كل مكان. فقد جف بئر السعادة الذي كان قادراً على جعل كل خلاياها سعيدة، جف ولم تكن قد ارتوتْ حتى بقسط بسيط. فتسآلت: هل المضي قدماً بالشيء اليسير؟ أم الجلوس بجانب البئر؟ وإن جلستُ هل سأمتلئ؟ لا أظن. إن المستحيل لا نراه حقيقة إلا في الأحلام، وقد كنت بحلم عذب، مثل نهر جارٍ مياهه مليئة بالمرجان، رأيت بهذا الحلم المستحيل ذاته، ولمست حقيقته ولكن من بعيد، وإن للمستحيل حدودًا لا يمكن بلوغها. وكما أن من المستحيل أن تسير موجات الضوء على قدمين، تماماً مثل امتلاء البئر الذي باغتني الأسى بجفافه.

فكيف ننمي ذكاء قلوبنا فلا نلدغ من جحر واحد مرتين؟!

وإن للحب أمانة، أمانة المحبين.

رأيت ذات يوم الحب في عيون الناس يُتبادل في النظرات وتلامس الأيدي وتفوه الكلمات، حتى أكاد أشعر أن حرارة الهواء تزداد من حولهم رغم برودة الجو فلا يشعروا به. كأن الحب هذا عمل على عزلهم وإبعادهم عن البرد. وتمر الأيام بهم على هذا الحال، هيام بالنبرات والكلمات والنظرات. ثم أجد بعد عدة سنوات أو ربما شهور فراق وعذاب وألم، وقد اختفى ما بدى عليهم. وبعد أن كان كل منهم في يد الآخر في أمان، أصبح لا يشعر بأي أمان، بل يكاد قلبه يطير فزعاً من مجرد ذكر اسمه. فللحب أمانة تماماً مثل من يأتمنك على حياته. فإن خنت انتهى، وإن اؤتمنت أصبت. فالحب هو الحياة؛ ومن يحب يلقي بحياته في راحتيْ يديْ من يحب. فيا لها من أمانة، وإن جملة صباح الخير تقولها الطبيعة بطريقتها، ويقولها المحب بلهجته، وكأن الكون كله يتغير،

فوجبت الأمانة حتى لا تسود لغةَ الطبيعة الأخطاءُ. فنرى في تفتُّح الأزهار الصفراء حباً، وهو في حقيقته بُغضاً. فالحب يجعلنا والطبيعة سواء.

وماذا لو كان الحب مستحيلاً؟

انتبهت فرحة لحالها كله وصرخت عالياً كأنها تصرخ في وجه قمة جبل عالي، وقالت "عندما تنمو المشاعر في بيئة غير مناسبة تكون جذورها قوية وممتدة، وتكون ثمارها ذات ألوان قاتمة، ومذاق لاذع، والسيقان قصيرة، وأوراقها صغيرة بلون الخريف لا يكسوها اللون الأخضر وإن أتاها الربيع، لم أكن أريد أن أحزن، لكن الحقيقة هي أنه قد تم أسري في سجون الحزن، فجلست في أحد أركانه وحلمت أن يتبدل حالي، وأن يتبدل هذا الركن المظلم إلى ورقة شجر خضراء تأخذني إلى حدود السعادة، وليس بالضرورة التوغّل بها، فيكفيني استنشاق هواءها منذ بعيد؛ فتحقق حلمي؛ وبالفعل تحول مكاني وأخذني إلى حدود السعادة، فقابلتها لأول مرة. فكم هي جميلة حدود السعادة! وما يوجد بعمقها! دامت لكم السعادة يا أهلها ودامت لي حدودها".

ويتساءل المحب: لماذا نبكي؟

نبكي لأننا غير قادرين على الحياة في الواقع بعد ما جربنا جمال الخيال، وأنّ ليس كل الإدمان كما نعرف، وليس كل الغرق كما نشعر.

ومن نتائج الحب المستحيل هو خلق نسخة أخرى من الإنسان الذي يجلس على القمر، نسخة قريبة، قريبة جداً لدرجة تأخذه من يديه وتدخله لتلافيف المخ، وحساسية الأعصاب، وتجلسه على أبواب الأوردة والشرايين؛ مما يسهل علينا التواصل معه، فيكون معنا، يفهم ما نفكر به ويشعر بما نشعر به. أما هذه النسخة من ذلك الإنسان الجالس على القمر، نسخة لا تستطيع أن تأخذنا بين

ذراعيها، ولا نستطيع نحن أن نلمسها ولكننا نستطيع فقط أن نتغلب بها على الحرمان منه.

((الوهم))

استيقظت فرحة صباحاً متأهبة لمحادثة ذلك الكيان الذي أحبته وقد بتر ذكريات الماضي من داخلها، وأدخلها عالماً وردياً لا يوجد به سوى الأزهار، وظلت تبحث في هاتفها على رقم هاتفه فلم تجده، وعلى صورة له، على صفحة الواتس آب على صفحته على الفيس بوك فلم تجده، جن جنونها، فهل كان كل ذلك خيال من صُنعها؟ كيف أُغلقت كل الأبواب المؤدية إلى صوته ورؤيته؟ اختفاءه هكذا من حياتها ليس بهذه السهولة؛ فأخذت تبحث من جديد. وبعد بحث طويل؛ لم تجد أي أثر على أنه كان موجود. بكت فرحة، وتدافعت الأفكار والأسئلة بذهنها.

ـ أمجنونة أنا؟

-كيف تخدعني أذناي ولساني الذي كثيراً ما ألقى عليه تحيات الصباح؟

ظلت تنظر لنفسها في المرأة، لتطمئن أنها حقيقة موجودة.

التزمت الصمت وبداخلها حوار يحاول أن يطمئنها.

((المنقذ))

اجتمعت المشاعر كلها لتحل هذا اللغز.

ليقول الإدراك: كان هذا خطئي، لقد تركت الوهم يتغلب عليه طوال الشهور السابقة، لا أستطيع تحمل ذلك الفشل بداخلي، فقد انتصر عليّ الوهم في معركة مباغتة لم انتبه إليها.

قالت القوة: إذاً كنت أنت السبب، والآن جاء دوري كي أبقيها قوية بعدما أدركت أنها كانت بحلم طويل، كانت بخيال وقد حان الوقت لتكون قوية ملامسة للواقع والتشبث به.

((أخيراً))

أخذت فرحة سطورها وقلمها لتكتب نهاية حبٍ ملأ الدنيا من حولها.

إن الحب الذي يستعمره التفكير ليس بحب. إن المحب حقاً دائماً يتمنى قائلاً "ليت لي قلب آخر كي أحجب حبك عن حب باقي الناس والأشياء".

ولا يجب أن ننسى أن إفلات بعض المشاعر يجعلنا نحزن بعمق، وأن الحياة مثل عنقود العنب الذي يتدلى منه الكرات جميلة الشكل والمذاق، ولكنه سريعاً ما ينفرط، ولا يتبقى منه سوى أغصانه الخشبية التي لا طعم لها ولا شكل. وإن الحب هو أن ترى ذرات الغبار في أشعة النور، والابتسامات الخافتة، والأفراح الباهتة، هو أن ترى بسهولة حزن يرقد بقلب، وذهول مدمر بعقل. الحب هو أن تسير في طريق ينتظرك في آخره السراب وتكتشف أثناء سيرك أن كل ما رأيته كان أنت.

فيا قلبٍ تأذى

إن كان الحب شعور واحد، فله ألف فكرة.

وإن كان فكرة، فله ألف شعور.

الحب سُحب تدور،

وأفلاك تتسع بسنوات لا ندري متى بدأت،

وشموع لا تنطفئ بقاع كيان دافئ.

وأزهار ملونة بألوان غير موجودة.

ونجوم ترقص مع بعضها حتى تتعب.

وليالي منيرة بشموس سحرية.

وطقوس رقة تلامس أيدينا وتمر.

ونسمات تسبح فينا.

وقلوب كادت من نار شوقها أن تفر.

إن الاندفاع في الحب بئرٍ

يوّلد فرحةٌ

ولكن سواد البئر أقوى

وقلبٌ سلمته الأيادي للهواء فأفلتهُ

وليالٍ لا تؤنسُ أحداً

أقوال وخطابات بلا مستمعٍ وبلا أيدٍ ولا لسانٍ يُجيبُهماَ

وآلام كل يوم تزدادُ ألماً

خطوات لا تدري لها منتهى

وشعورٌ لا يفهمه العقل وبه يجنُ ويشقى

معركة بين بحرين من سرابٍ وكلاهما انتصرا

على درب الحقيقة البائس المحتقنِ

أنوار في باطنها الظلام فلا نظرا

وطيور غابت ولم تَعد لتنشدُ لحناً

وكم للحياة من أيام لا يعرف الإخلاص لها يوماً

وكم من آهات لم تجد لها مستمعاً

وكم من كفوف لم تصل للعيون كي تجفف دمعاً

وإن اندفع الحبُ فلا سبيل له ولا منقذٍ

ولا روح له وإن ظل بباطن البئر يئن بصوت يعلو مرتفعاً

فالصوت من باطن البئر أصداء لا تحمل معنى

فلنجفف البئر ولنقيد المندفعَ.

ما لي أراك والدنيا سواء؟!

وما للجمال بك أنت؟!

قل لو كانت الدنيا أعمارٍ

فأنت والله لي كلهِ

وإن كان الجمال يملؤنا انبهارٍ

فوالله قد أصبح حالي منه جبالٍ

أود أن أعتذر من سنوات عمري

التي مضت وأنا من دونه أكحل الآبار

خارت قواي عندما

رأيت في قواك ما كان قط يهزمني

ضعت بصحرائك ونجيت بلا رغبةٍ

ثم نُفيت برياضك بلا رجعةٍ

فإن في صحرائك نجاة من العطشِ

وفي رياضك نجاةٍ من الكللِ

فما لي أراك والدنيا سواء؟!

ومال الجمال بك أنت؟!

تبحث قلوبنا بجنون عن اسمٍ لها.

فتجده لدى من يبزغ لين قلبه على مشرق.

وتُخفيه في أقاصيها في كل مغرب.

فلا يعلم اسم القلوب إلا من سوّاها

ولا يعلم حتى، من سماها.

يتضح الحب في الكلمات ولو نطقنا كُرهاً

تسطع شمسه في العِبارات وإن كانت لغواً

للحب بادرة تُطلق حرباً

حرباً يخوضها القلب بطل

للحب حوار بين الجوارح سر

لكن العيون لا تحفظ سراً ولا عهداً

الحب حيرة لا تعرف قراراً ولا أمراً

كوخ مظلم وإن أصبح للشمس بيت

نهرٌ جارٍ بلا سدٍ

ينفذ أسواراً ويسافر دهراً

ويأتي لمن يحب بقبسٍ

يذيب قلبه قبل أن يُعلَن

ولكن للحب رُسل تأبى أن تحجب خبراً

عندما يزول السحر يتضح ما توارى من معاني الكلمات، ولا نفهم إلا أحزنها.

تشرق الشمس من مشرقها بعدما كانت دائماً ساطعة، وما كان أقربها.

ويغيب القمر في بعض الأيام بعدما كان مقيماً بأكملها.

وتموت العصافير في أقفاصها حتى مع رعايتها.

تذبل الأزهار ولم تعد بجمال ما كنا نعهدها.

نعود للحياة مرة أخرى ولم تعد كما نفهمها.

تحوم حولنا أشباح الحزن في حجرات قلوبنا؛ فلم يعد يهتم بالحياة وأهملها.

كيف لفيضان الدموع يسيل بأيامنا ويغمر ذلك الحزن منبعها.

تصبح الأقدار واضحة بعدما كنا نجهلها.

نصير في طريق غدٍ الذي بات لا يضرنا ولا ينفعنا.

تلك الأيام بدون سمع ولا بصر، وفي ظلامها ما أثقلها.

تلك الأماني ماتت بزوال سحر، وما كان أسعدنا.

((الخاتمة))

مرة أخرى، ما الحب؟

الحب هو فجوة تركها أحدهم داخل عقلك وامتداد بصرك. الحب هو متاهة للقلب وعليه أن يجتازها بذكاء. الحب هو توقفك بزمنٍ ما، وعليك أن تركض كي تلحق بما استمر. الحب هو أنت ولكنك تحتاج ان تستكشفك. الحب هو أن تنتظر المُحال، فتصبح أنت نفسك المُحال أن يُصدق أنه موجود.

انتهت

الحب المفقود.

ادخر الدكتور سيد الصيدلي البالغ من العمر ٤٣ عاماً مشاعره لنفسه، وعزلها عن الناس، ووهب روحه إلى عمله ولزيادة نشاط مجموعة صيدلياته. عندما أراد أن يهب ثروته من مشاعر الأبوة لأبنائه لم يستطع؛ رفضوا هذا النوع من الثروة، لم يبالوا يوماً بمشاعر بنوتهم له ولا بمشاعر الأبوة تجاهه؛ ربما اكتفوا بمشاعر الأمومة التي تنعّموا فيها مع أمهم غير مبالين بتقييم شخصية الأم، كما لم يبالوا بمشاعرهم تجاه أمهم أيضاً. وكأن المشاعر لم تكن ضمن معرفتهم بالأشياء. وبينما هو منشغل في عالمه الصلب ظهرت له نور، فتاة تصغره بعشرين عاماً، فتاة مليئة بالاندفاع والحيوية وحب الحياة والأمل، تريد أن تتعلم الكثير لتشعر بالنجاح. وبمجرد ظهورها -ومن أول لقاء- أصبح دكتور سيد معجب بها بشدة؛ ففضلها على باقي الموجودين، وأخذ يعلمها بنفسه كل التفاصيل، أصبح يحب الحياة وكأنه سحب جزءًا من رصيد مشاعره المتحفظ عليها؛ فاعتاد على أخذ نور معه في كل مكان له علاقة بمجال الصيدلة، وكأنه يأنس بها، لا لكي يعلمها شيء.

وظل الحال كما هو حتى قرر أن يذهب لعمل عملية جراحية تجميلية، وتمنى أن تكون هي من ترعاه حتى تنتهي فترة النقاهة، وكان هذا واضحًا جداً على نظراته لها؛ وكأن عينيه تتوسلان لها؛ فهمت نور ما يريد أن يقوله، فبرهافة قلبها كانت تستشعر الحب، وإن كان مختفيًا، وتسمع كلمات الحب وإن لم تقَلْ. زارته يوماً في المستشفى عقب انتهاء العملية الجراحية، فوجدته في حالة صحية جيدة، وحين قابلها كاد من فرحته أن يشدها من زراعيها كي يحتضنها وينتصر بحضنها على وحدته، فلم يتجرأ على إفساد روح من تقف

في مركز عالم البراءة والوضوح. أحبها في صمت، احتاج لها احتياجًا مدفونًا في نفس إنسان يبدو مكتفياً لا يريد شيئًا على الإطلاق.

حاولت نور اظهار التودد له بالشكل المتاح على قدر فهمها أيضاً للأمور. وفي يوم آخر ذهبت لزيارته وجدت عنده جميع أولاده، فشعرت بغربة ورهبة، وشعرت أن الذي تراه شخصاً آخراً غير الذي تعرفه، فهو أب لولدين وبنت في سنوات الطفولة، لم يبلغ أي منهم العشرين عاماً، وأيضاً شعروا هم باستغراب شديد من وجود فتاة مع أبيهم، وقد كانت تعلم أن طليقته تتخذ إجراءات عنيفة ضد أي امرأة تظهر في حياة أبيهم، وتشكل تهديداً على ثروة أبيهم، وبالتأكيد سيخبرون والدتهم بشأنها.

عاد دكتور سيد إلى حياته ولعمله بالصيدلية، وقرر أن يطلب منها الزواج، وطلب من زميلة لها أن يذهبا لشقة اشتراها قريبة من الصيدلية لتكون هي مسكن الزوجية. وبالفعل ذهبت نور وكانت أجمل مما توقعت، لكنها لم تفرح، بل شعرت بخوف شديد. سردت لأمها الأحداث من بدايتها وحتى طلب الزواج، فلم تبدِ أمها رأياً وسكتت. دار بخلدها فارق العمر بينهما، فهو رجل ممتلئة سنوات عمره بخبرات الحياة، بينما ترى في عيون ابنتها عدم فهم ما هي مقدمة عليه إن تمت هذه الزيجة.

وبينما الصمت مستمر بين جميع الأطراف ظهر محمد؛ حب نور من أيام الجامعة، ظهر وكأنه طوق النجاة الذي انتشلها من قرار مصيري خاطئ، ظهر في أبهى صورة له. طارت نور فرحة بظهور محمد مرة أخرى في حياتها بعد أن رفض حبها طوال ثلاثة سنوات دراسية؛ لأنه لا يستطيع الارتباط بأية فتاة كانت نظراً لظروفه العائلية الصعبة، فكان هو من يكفل أسرته، فتعسر كثيراً

سنوات الدراسة. ولكن المفاجأة التي قد أطاحت بكل شيء أنه أصبح على استعداد أن يطلبها للزواج، لكن بشروط: أن يتزوجا في بيت العائلة في قرية ريفية، وأن تترك عملها؛ لكن أبيها رفض رفضاً تاماً أن تكون ابنته مجرد جارية لشاب لم يحصل على شهادته الدراسية؛ فهو ما زال في الفرقة الثالثة بكلية التجارة، وتوشك الكلية على فصله، وبلا عمل منتظم وبلا مسكن خاص بهما. فحزنت نور لرفض أبيها، وتبدل حالها وانطفأت روحها. ظل الحال كما هو لمدة عام كامل، خلال هذا العام أنهت علاقتها بالصيدلية وبدكتور سيد الذي ظل محاولاً الاتصال بها دون جدوى، وازداد حالها سوءاً. أشفق عليها والدها وطلب أن يقابل ذلك الشاب الذي أصبح سرطاناً تعاني منه ابنته، وقابله خارج المنزل في محل مشهور يرتاد عليه الكثير لاحتساء مشروبات مختلفة في وسط المدينة، وكان محمد صريحاً للغاية في وصفه لتعسر حياته، وأنه يريد أن يبدأ هو ونور من الصفر، وأنه لن يظلمها أبداً، فلديه ستة أخوات؛ وبالتالي هو غير قادر ظلم أنثى أبداً. رفض الأب هذا الشكل من الزواج للمرة الثانية، فعاد الحزن للمرة الثانية بعد ما كاد الأمل يظهر من بعيد. وسرعان ما تدخل القدر وأتى بفرصة عمل لمحمد في السعودية، فوافق الأب على الارتباط بشرط أن يشترى محمد لنور بيت في القاهرة ليكون مسكن الزوجية، وألّا تتزوج نور في القرية أبداً، ويكون لها مسكن مستقل، وأن تستمر بعملها الذي طالما تمنت أن تعمل به.

سافر محمد وانتظرته نور ثلاث سنوات، حتى عاد وجاء موعد زفافهما. وتزوجا، ولكن لم تكن نور سعيدة كما كانت متخيلة؛ قد أصابها حزن شديد، وتراجعت مشاعرها عندما أصبحت تحت وطأته، ارتجفت من كثرة الاختلافات، لم تعد تراه كما كانت تراه، طغت الطبيعة الريفية عليه، والتي لم

تعتدْ عليها، والتي ظل يحذرها منه والدها لأعوام. ضاع الحب في مكان ما وفي وقت غير معلوم، واستمرت الحياة من دون مشاركة ولا العطف الذي يغمر الرجل زوجته فيه، وظلت تنحت في حياة صلبة حتى تصل لنتيجة، أي نتيجة غير الفشل. مضت سنوات وسنوات في ذلك الضياع. حتى اضطر للعودة إلى مصر، فلم يستطع أن يتواجد في معركة الحياة معها، فاختار أن يتزوج بأخرى أكثر تحرراً، ميسورة الحال وخالية من المسؤوليات ومعارك الحياة، زادت معاملته السيئة لها أكثر بينما تتمتع أخرى بأرق الأحاسيس والكلمات وتعيش أجمل الأوقات. مرت سنوات أخرى في الأحزان بينما هي مستمرة في النحت على حجر آخر أشد قساوة، حتى يكتب الله لأولادها النجاح لتصل بهم لبر الأمان.

بينما تمر الأيام والسنوات ظهر أمامها شاب ثلاثيني لا يعرف معنى للقسوة أبداً، حنون، لين القلب، ما زال في المنطقة البريئة للحياة. دق قلبها مرة أخرى وعاد للحياة، واستفاقت فجأة على حب مستحيل بعد ما تجاوزت الأربعين، فأحبته في صمت، احتاجت له احتياجاً مدفوناً في نفس إنسان يبدو مكتفياً لا يريد شيئاً على الإطلاق، تماماً مثل دكتور سيد بالماضي. وحاول هو إظهار التودد لها بالشكل المتاح على قدر فهمه أيضاً للأمور؛ تماماً كما فعلت هي في الماضي. وكما هربت هي من حبٍ مفقود أصبح لديها حبها المفقود.

من دون عزاء

لم يسعفه الوقت كي يعيد زوجته وأولاده لبيتهم، لم يتمكن من إعادة الوقت للحظة التي سار فيها في عكس الطريق الذي قد رسمه معهم، وقف حينها يتأكد من ابنه الأكبر شريف البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً أخذ جميع ملابسه وأغراضه والدموع تملأ وجهه وهو يساعد أمه أيضاً في أن تأخذ جميع أغراضها، وتأكد انهم انصرفوا إلى بيت حماه في نفس القرية، حتى يعود كي يجلس أمام جهاز الكمبيوتر الخاص به؛ كي يكمل حواره مع الشقراء ذات الابتسامة الساحرة، والقوام الممشوق، وعينيها الخضراوتيْن.. علاقة عبر الإنترنت تخطت حدود الصداقة إلى حدود الاتفاق على الزواج؛ فتغيرت عاداته، ولم يعد يأخذ التوكتوك في الصباح الباكر، ويعود قبل صلاة المغرب مباشرة؛ ليتناول وجبة الغداء مع زوجته، ابنة عمه وشريكة كفاحه منذ أن تزوجا، وكان عمرهما لم يتجاوز العشرين عاماً، وابنه شريف الذي حديثاً قد أنهى فترة تجنيده ويبحث عن أي عمل، كي يعول نفسه ويستطيع أن يتقدم لخطبة بنت عمه سلمى، والتي هام بها منذ الصغر، وينتظر يوماً يجمعهما القدر في بيت واحد، وكان مطمئناً أنها في انتظاره حتى يبلغ هذا الهدف.

أصبح وحده بالبيت حراً طليقاً يغازل حبيبته كما يحلو له وكما يشاء، أتت ابنته المتزوجة صباحاً لتحاول إعادته إلى رشده، فلم يسمع ولم يقبل أي كلام، وانهال عليها باللعنات، وأثقل الكلام موجهاً لها تهمة عقوق أبيها وسبه وقذفه. فخرجت من بيته باكية، وسمع كل الجيران بموقف عم موسى الذي فقد عقله، وخرب البيت الذي ظل طويلاً محتفظاً بهدوئه. وتدخل كبار الشارع محاولين نزعه من أيدي الشيطان، ولكن كان الشيطان أقوى، فتواعد مع حبيبته الجميلة في أحد فنادق القاهرة، وكان يوماً مليئاً بارتكاب كل المعاصي، ثم عاد إلى

القرية سعيداً منتشياً لا يصدق نفسه، كيف لهذه الفتاة الصغيرة الجميلة أن تحبه كل هذا الحب؟ حتى أنها تعطيه نفسها؟! وكانت أجمل أيام يعيشها في حياته، كما كان يقول سعيداً راقصاً في أركان بيته، ناسياً ولده شريف وابنته التي انصرفت حزينة لحاله، وزوجته التي تركت بيتها وقد اقتحمها الحزن حتى باتت مريضة في بيت أبيها.

ظلل العبوس البيت والقرية وهو لا يشعر، انفض الناس من حوله، لم يتبقّ له سوى تلك التي يقابلها في الواقع وفي الخيال، ثم بدأ يفقد وزنه، وتتورم مفاصله، وعانى من طفح في الجلد. ذهب إلى دكتور القرية فاندهش الطبيب، وطلب منه إجراء تحاليل دم حتى يتمكن من تشخيص حالته، وبالفعل كانت نتيجة تحاليل الدم تدل على أنه مصاب بمرض الإيدز، وسرعان ما أُشيع الخبر بالقرية حتى قبل أن يدري هو، فتجمع الرجال على المقاهي، والنساء في بيوت إحداهن.

كان الخبر بمثابة الصاعقة التي أصابت الجميع، وقال كبيرهم "يا رجال أفتوني في أمره، هل نبلغ عنه الشرطة؟" قال أحدهم "من الممكن أن نبلغ الجمعيات المسؤولة عن هذا الشأن". وبينما هم مجتمعون كان هو يُحضِر نفسه للذهاب إلى المعمل لاستلام نتيجة التحاليل والذهاب بها إلى الطبيب. وفي نفس الوقت الذي أصبح كالدهر في عمر القرية كان هناك بعض الصبية الصغار من مراحل دراسية مختلفة من أهل زوجته علموا بالأمر، فقرروا أن يحرقوا البيت آخذين بثأر زوجته وأولاده، وحتى يتم تطهير القرية مما ظهر فيها من فساد، لقد نفذوا فيه قرار الإعدام بأيديهم حين اختبأوا في الظلام، وأحاطوا البيت بالبنزين، وألقوا جزءًا منه في المداخل، واشتعلت النيران بالبيت كله، وذهب هو لجحيم الدنيا مبدئياً قبل جحيم الآخرة.

اندهش الرجال والنساء لاندلاع النيران، وهرعوا جميعاً إلى المنزل الذي سرعان ما تفحم. هرولت معهم زوجته فزعة من الخبر، ووقفت منهارة أمام بيتها الذي أصبح غير موجود، وزوجها الذي سيق إلى النيران.

كان شريف في تلك الليلة يتناول وجبة الغداء عند أخته، فلما سمعا خبر الحريق أسرعا إلى هناك، ليجدا والدتهما تقف وحيدة، بينما يقف كل أهل القرية ملتحمين قريبين من بعضهم، ونظراتهم تتأرجح بين البيت المنكوب وبينها، فالتحم بها شريف وأخته، وعلموا ألّن يصبح لهم مكان في القرية، ولا مراسم عزاء.

مدينة النور

خرجت هند من بيت أبيها وزوجته بعد صدام حاد ظل لسنوات. في تلك السنوات حاولت مراراً أن تتقرب لزوجة أبيها كي تعيش في سلام، ولكن زوجة الأب كانت تأبى بشدة أن تلاطف هند أو تعبأ بها وبمحاولاتها مثقال ذرة واحدة. كانت تل رخامي لا يقبل الطرق عليه بأي نوع من الأنواع المستأنسة، حتى بلغت هند الثامنة عشر وهي مستمرة في استعطاف زوجة أبيها، رغم استمرار القهر شديد وضعف أبيها وإهماله لها. كان ضعيف الشخصية لا يريد شيئاً إلا أن يعيش كحمار الحقل الذي يذهب ويعود كي يأكل البرسيم، ويقف بجوار جدار البيت. وهند المحرومة من الحنان والعطف، ومحرومة أيضاً من الرحمة من ذلها ورضوخها، فقررت أن تخرج من هذه الأجواء الظالمة. كانت متيقنة أن هناك جمال ما ينتظرها؛ ولكنها لم تكن تعلم أين هو، وما هو من الأساس. أخذت كل ملابسها المتواضعة، ومن دون أي مال يُذكر أغلقت الباب وراءها، ولم تخشَ المجهول المنتظر، بعد آخر درجة من درجات السلم المؤدي للحرية من اتجاه، و الاتجاه الآخر للعبودية، كانت بالفعل عبودية؛ فقد كانت دقات الساعة تعني خدمة زوجة أبيها، وقضاء مهام البيت؛ حيث كانت هذه الزوجة لا تهتم إلا بشئون نفسها، وتوكل كل شيء إلى هند، كانت امرأة شهوانية، لا يربطها بالحياة شيء سوى طرق الشهوات بمختلف أنواعها، فكانت هند تترك فصولها الدراسية بالكامل ولا تذهب لمدرستها إلا لتؤدي امتحانات منتصف وآخر العام، وهذا أدى إلى تأخر مستواها الدراسي. في البداية ظلت هند تسير في الطرقات فرحة، لعبت مع القطط، وقفزت فوق ظلها

آخذةً منه صديق يداعبها. طفلة بحجم شابة تسير في طرقات مدينتها بلا وعي ولا رغبة في أي شيء؛ حتى شعرت بالجوع فقالت "وما الجديد؟! فكثيراً ما شَعرتُ به ولم أحصل على أي شيء سوى الماء، فكم من المرات تناولت وجبات من المياه! حمداً لله؛ فالماء متوفر في كل مكان". فأتى الليل عليها ثم انتبهت، إنها ليست خائفة على الإطلاق، لا شيء جديد كانت تخافه، حتى في وجود من كان عليه أن يحميها. فظلت تسير وهي فرحة بأضواء النجوم وابتسامة القمر، حتى وجدت نفسها أمام حديقة جميلة، بستان عبير أزهاره كأنه ملئ الأرض والسماء حتى وصلت للقمر، وكانت هي سبب ابتسامته. سقطت منها حقيبتها، فلم تهتم وظلت تتأمل ما قد وجدت، فإذا بها تسمع صوت ينادي باهتمام:

- يا آنستي، يا آنستي.

استدارت لتجد وجه شاب وكأنه شجرة فرت من البستان كي تنادي عليها، وبيده حقيبتها فأخذتها منه وقالت فرحة:

- شكراً أيتها الشجرة. فابتسم هو أيضاً وقال لها:

- عفواً أيتها الزهرة.

ففرحت في خجل من جمال الكلمة، سألها:

- لماذا قلتِ إنني شجرة، رغم أني لست طويل.

قالت وهي أكثر خجلاً:

- لأني شعرت كأنك شجرة خرجت من هذا البستان الذي من المؤكد أنه يهدي للنسيم أشعاراً كل مساء، بينما أنت تهديني حقيبتي.

ابتهج الشاب لجمال كلامها وقال لها في حنان:

ـ أتودين أن تدخليه.

سألته فرحة وهي تستعد للركض نحو بوابة البستان: وهل لي أن ادخل؟

فضحك الشاب الذي ليس بشجرة ولحق بها، ودخلا البستان لتجد رجلاً مسن مع زوجته يجلسان بجانب الجداول الصغيرة بين الأشجار يشرب كل منهما مشروب النعناع الجبلي الذي تفرض رائحته سيطرتها على الهواء، وقال لهما الشاب بفرحة:

ـ لدينا ضيف يا أبي.

سُرّت أمه بمجرد رؤية وجه هند، فأقبلت عليها هند لتدخل في حضنها الدافئ، وجلست بجوارها، وطلبت كوباً من النعناع هي أيضاً؛ غير خجولة من طلبها، وقالت:

ـ عذراً أمي، فأنا لا أخجل منك؛ يمكنني أن أطلب منكِ ما أريد، فأنا أشعر بأنس ملامحك وأنس المكان.

ابتسمت العجوز وقالت:

ـ أجمل كوب نعناع لأجمل بنت.

ابتسم لها ثلاثتهم ابتسامات مرحبة بها فقررت أن تقول:

ـ أنا هند، وقد قررت ترك بيت زوجة أبي، وأنا أعلم أن أبي سيفرح بما فعلت؛ وربما أكون قد تأخرت في اتخاذ هذا القرار.

لا أدري حينها هل كان الشاب ينظر لها بعينيه أم بأحاسيسه المتسارعة شفقة عليها وفرحة بها؟! وقال الرجل العجوز:

ـ إذاً يا هند أنتِ صاحبة البستان، اركضي به كما تريدين، وهناك كوخ صغير ببداية الجدول يمكنك أن تنامي فيه، وتطلبي من أمك ما تشائين كما ذكرتِ.

فرحت هند واقتحمت حضنه في أمان، ثم نقلت اقتحامها المندفع لحضن أمها الجديدة. ثم اصطحبها الشاب في ألفة لكوخها الجميل، وقطف لها ثمرة من التفاح كي تأكلها قبل خلودها في النوم، ثم عاد لأمه وأبيه متجهماً، قلبه يكاد يتوقف من سرعة نبضاته المتلاحقة وظل يسمع صوت هند يتكرر في أذنيه، ظل يراها تركض أمامه كالأطفال وهو يلحق بها، حتى قالت له أمه:

ـ يا حسام ها قد بعث الله لك من يؤنس وحدتك، فأنا وأبيك سوف نتركك قريباً، وهذه الفتاة مثل الملاك الذي زارنا عشية، مثل الملاك الذي نزل على سيدنا إبراهيم وألقى عليه البشرى.

لم يقل حسام أي شيء سوى الصمت، وكأنه نائم يحلم بكل هذا، ولا يستطيع التحدث في الحلم، رغم الكلام الكثير التي يريد أن يفر منه، ثم خلد الجميع في النوم. وجاء أجمل صباح لم يأتِ مثله من قبل. وقد استيقظ حسام مبكراً، وجلس أمام الكوخ منتظراً هند كي يراها في أضواء الصباح؛ ليتيقن من كونها حقيقة وليست حلم، وكأنه يطلب من النور أن يشهد بأنها حقيقة وليست خيال، وسرعان ما خرجت هند من الكوخ مبتسمة مستبشرة لتجده أمامها، وبمجرد أن رأته ركضت نحوه وكأنها تركض نحو أمها الحنون، لتقول له:

ـ صباح الخير يا نور.

ـ اسمي حسام وليس نور.

ـ أعرف، ولكنك نور، نور انبعث لي وحدي كي أرى ما أنتظره من جمال، وكي أشعر بالأمان.

سعد بكلامها وسألها:

- هل تثقين بالناس بهذه السرعة؟

- بالطبع، فأنا أعلم منذ سنوات أن أجمل ما يمكن أن يحدث بانتظاري، وها قد مرت بي أول ليلة خارج بيت زوجة أبي بأماء، فكيف لا أثق بك؟!

نظر حسام في عينيها ليكتشف منهما حقيقة أن الإنسان من السهل أن يحب، ومن الصعب أن يكره، وكأنه قد اختزل حقائق الإنسان كلها في هند، هند وحدها. أخرجته من شروده بقولها:

- دعنا نُوقظ أبي وأمي كي أُحضر لهم أجمل وجبة إفطار.

ساعدها حسام في تحضير الإفطار، وقد استيقظ العجوزان وبقلبيهما راحة؛ وكأنهما أخيراً قد هدآ من تعب ما، وبعد الإفطار أخذت العجوز هند من يديها وذهبا للكوخ، وقالت العجوز:

- أتمانعين أن تتزوجي ابني حسام؟ فأنا لن أعيش كثيراً، وأود أن اتركه مع من يؤنسه، وأطمئن عليه معه، وقد أرسلكِ الله لنا.

ببراءة الأطفال وخجل البنات ابتسمت هند، ودققت نظرها في أسفل قدميها كأنها تبحث عمّا سقط منها، ولا تدري ما هو؛ ففرحت العجوز وأخذت تطلق الزغاريد في البستان لأول مرة، وسمعت الأشجار زغاريد الفرحة كما سمعها حسام وأبوه؛ فزاد النور الذي شهد على أن هند حقيقية وليست خيال صدر منه ليصبح مدينه بأكملها، ليصبح البستان مدينة النور.

سؤال بلا إجابة

أشعر وكأنني فتاة في التاسعة عشر؛ رغم أنني تجاوزت الأربعين. حين تلف هاتفي المليء بالكتابات والصور والمراسلات، حتى أنه كاد يصرخ من الألم مثل مَن أكل وجبة دسمة وهو شبعان ولا يشتهي الأكل، ولكنه اعتاد على ملئ بطنه حتى النهاية، فذهبت كي أتركه في المتجر المتخصص في إصلاح هذه الأمور، فقالي لي المسؤول "يحتاج إلى ثلاث ساعات لإصلاحه". ارتعبت من طول الفترة، وقلت "ثلاث ساعات! أليس كثيراً ثلاث ساعات؟" فقال لي "هذه أقل فترة يمكن فيها إصلاح عيوبه". فوافقت على الفور، ولكن كنت منزعجة جداً، كيف سيمر الوقت دون هاتفي؟! وهل سأتحمل في هذه الفترة أن أكون بعيدة عن حياتي التي أنشأتها منذ عام على السوشيال ميديا؟! صور، تعليقات، فيس بوك، واتس أب، إنستجرام، تليجرام. هل سأستطيع التغلب على رغبتي في البحث على جوجل عن كل ما يخطر ببالي أثناء هذه الساعات؟ فقررت أن أسير في الشوارع إلى أن أسترجع هاتفي.

بدأت السير فوجدت نفسي أنظر إلى من حولي وأترقب أفعالهم وملامحهم وألوانهم وألوان ثيابهم؛ أنا من كنت لا أهتم بمن حولي، ولا أرسل إليهم بصري على الإطلاق، فقد كنت منشغلة بهاتفي الذي وقع بوعكة صحية، واضطر لعمل عملية جراحية أبعدته عني. فلاحظت أن كل الناس أصبحوا مثلي مشغولين بهواتفهم. حتى الأطفال الصغيرة؛ فلديها ألعاب تأخذهم عمّا تشعر به أمهاتهم وتواجهه أثناء رحلتهم ذهاباً وإياباً. هم أيضاً لا يلقون البصر إلى بعضهم مثلي تماماً.

جلست على رصيف عالٍ كي أستريح، فإذا بي أجد طفلاً صغيراً من الممكن أن يكون في الخامسة قد أفلت يد أمه، وهي مشغولة في شراء بعض الأغراض، وكاد أن يعبر الطريق بمفرده؛ فكادت السيارة أن تدهسه، فوجدت نفسي بسرعة ذرات الغبار ماسكة بذراعيه، وقد كانت مجرد لحظات لولاها لانقلب الطريق إلى كارثة. حمداً لله أنني منتبهة، حمداً لله أن تليفوني ليس بيدي. أكملت السير؛ فما زال لديّ متسع من الوقت، فأخذتني قدماي إلى الشوارع السكنية الضيقة تاركة خلفي حركة السيارات وضجيجها، لأجد نفسي محاطة بمجموعة من الأطفال الذكور يلعبون بالكرة ويناولونها لبعضهم بأرجلهم في فريقين؛ حتى يتخللوا بعضهم البعض ليضعوا الكرة في مَن يقف حارساً لمرمى الفريق الآخر، فأجد نفسي بينهم أناولهم الكرة أنا أيضاً؛ حتى أصبحت لاعباً محايداً يلعب في الفريقين! وأخذتني الحماسة كي أُدخل هدف لفريق ثم الفريق الآخر، فوجدت المتعة زادت بالركض خلف الكرة بمهارة وازدياد المناورات، فأدركت لحظتها لماذا أشعر وكأنني فتاة في التاسعة عشر رغم عمري الذي تجاوز الأربعين، ولكنني سوف أفكر فيما أدركته لاحقاً، حتى انتهت المباراة وقد كنت أنا الوحيدة المتضررة من انتهاءها؛ فقد كان لكل فرد منهم أعماله الذاهب إليها، فقد سمعت واحداً منهم يتحدث في هاتفه "نعم يا أمي، حسناً قد انتهيت". والآخر "إني ذاهب كي ألحق صلاة العصر". وسمعت صوتاً يقول "إني ذاهب إلى درس اللغة العربية". وكثير وكثير من الأهداف والاتجاهات. وقفت أنا أسأل نفسي "إلى أين أنتِ ذاهبة؟" فلم أجد إجابة. ولكنني واصلت السير بجانب سور مصنع، فوجدت اثنين من عمال النظافة يسند كل منهم على كتف الآخر مستغرقين في سبات عميق، حتى أن الذباب استغرق هو أيضاً في اللعب على مسطحات وجوههم، فاقشعر جسدي كله، ليس من أي شيء سوى

حزني عليهما وعلى حالهما المحرومة من دفء فراش، ونظافة بيت، وراحة ونظافة جسد. وأكملت حتى انتهي الطريق؛ فإذا به طريق مغلق، فاضطررت إلى العودة لأجد أحدهما قد استيقظ، وقام وترك مكانه فارغاً بينما الأخر ما زال نائماً متكئاً على الفراغ الذي تركه صاحبه، ولكن أوتار رقبته ظلت متمسكة بوضعها حتى لا يسقط ويرتطم بالأرض، فظل محتفظاً بنومه وبسكون جسده، رغم أنه متكئ على الهواء، فقد كانت أوتار رقبته عادلة ورحيمة به، فاطمأننت عليه وتركته نائماً.

وأكملت السير؛ وبعد خطوات صغيرة وجدت اثنين آخرين من عمال النظافة كلاهما نحيف، ولكن واحد منهم كان نحيفاً جداً وهزيلاً، وملابسه تكاد تكون مجرد خيوط بنسيج لم ينسج بعد. وإذا بالقوي نسبياً يبرح الهزيل البائس بلكمات عنيفة جداً وموجعة في وجهه، لكمات متتالية حتى أن الآخر امتلأ بالدماء، كما أن رأسه امتلأت أيضاً به، ففي كل لكمة على وجهه يرتطم رأسه بالجدار، وكانت رقبته تختنق من قبضة اليد الثانية بإحكام حولها. استمر هذا المشهد لبضع دقائق، فوجدت نفسي أقترب من هذه المعركة الدموية التي ليس بها أي تكافؤ على الإطلاق، معركة بها طرف مستسلم ومهزوم من قبل أن تبدأ، محاولة إنهاء هذه المعركة بالتحدث إلى الهزيل المعتدي، وبالفعل نجحت فتوقف غضبه، وكأنه يضرب سوء قدره. واطمأننت أنهما قد انتهيا، فنظرت من حولي لأجد الناس يشاهدوننا كفيلم سينمائي يعرض في الشارع بالمجان؛ فقررت أن أترك صالة العرض لاستكمل نزهتي الحزينة حتى ينفذ الوقت المحدد لإصلاح الهاتف. فنظرت إلى الوقت فوجدته بالفعل قد نفذ، فانطلقت مسرعة نحو المتجر، وقبل دخولي وقفت برهة ونظرت خلفي لألقي نظرة على الناس من خلفي. لا أدري هل كنت أطمئن أن العالم من حولي موجود

بسلام، أم أنني كنت أودعهم قبل عودتي إلى هاتفي، عالمي الخاص الذي لا أرى ولا أشعر إلا به. متسائلة هل الكون من حولي هو الجدير بالاهتمام؟ أم الكون الموضوع بهاتفي؟ فأخذت دقائق للتفكير حتى أجيب. ولكني وجدت أنه سؤال بلا إجابة. ثم استلمت تليفوني العزيز وانغمرت فيه مرة أخرى. فلم أعد أرسل نظراتي إلى من حولي، ولكني لم أنسَ الشعور الذي انتابني منذ البداية، وعاد إليّ مرة أخرى وأنا ألعب مباراتي الماهرة في الشارع مع الأطفال، وشردت في التفكير حتى أفهم ما انتابني، ولكني سمعت صوت نغمة هاتفي فإذا به اتصال من إحدى صديقاتي "ألو........".

حلم نجمة

هل من الممكن أن تتقابل نجمة مع الشمس يوماً؟

كان يا ما كان...

كانت هناك نجمة منيرة وجميلة في السماء، كل يوم يزيد بريقها وجمالها، لكنها كانت دائماً حزينة. وعندما سألتها جارتها "لماذا أنتِ دائماً حزينة؟" قالت النجمة الجميلة "أريد رؤية الشمس وأستشعر دفئها، ورؤية شروقها، فنحن والقمر لم نحظى برؤية الشمس قط". فتركتها صديقتها مستهزئة "قد انتابك الجنون أيتها الصديقة الجميلة". فأخذت النجمة ذات الحلم المستحيل تفكر كيف لها أن ترى الشمس؟ كيف لها أن تذهب لزمان غير زمانها؟

فتبادر إلى ذهنها أن تختبئ في أقرب سحابة، وتظل بها حتى يأتي النهار. وقد كان، وقد فعلت. حتى أتى النهار وبجانبه الشمس العظيمة، وكأنه موكب ملكي تقشعر له أبدان الرعية. ولأول مرة ترى النجمة حلمها الذهبي، لأول مرة ترى شروق شمسها التي طالما حلمت بها، وتشعر بآشعة الدفء، لأول مرة ترى النور الذهبي، ولم تفتقد القمر ولا النجوم ولا سكون الليل، فقررت البقاء في السحابة، وألّا تعود إلى ظلام الفضاء مرة أخرى، وهي تعلم جيداً أنه إن أمطرت السحابة ستسقط، وسوف يكون مصيرها الحتمي هو تحولها لفتات. ولن تكون أبداً النجمة اللامعة مرة أخرى؛ لكنها عشقت الشمس؛ فقررت أن تظل بأقرب مكان تستطيع فيه رؤيتها، وتنعم بنهارها، وإن كان وقتاً قليلاً من سنوات عمرها الذي حتماً سينقص بتحقيق حلمها الذي هرب من المستحيل. لكنها حققت حلمها وتحققت أيضاً نهايتها المؤكدة، وأن هناك في تحقيق الأحلام جمال أقوى من أمانِنا، وإن كان به نهايتنا المؤكدة.

وريقات الزهر المتساقط

كل ذلك وأكثر يحدث عندما نرى السعادة متجسدة في إنسان، ونظن أنها قابلة للمس والاحتضان وتبادُل الأحاديث. حين عرفته أدركت للحياة سعادة كانت مختبئة وراء كل أحداث التخاذل والتخلي ممن أخذ حياتي بميثاق غليظ، إلا أنه قد حلّ نفسه وحلني منه، أحداث مرت وفجأة ظهرت أخرى، بعد أن سافرت خارج محافظتي للعمل بمحافظة أخرى، وقد كان الحدث الذي كشف عن تلك السعادة التي طالما شَرِدت واختبأت، شاب في الواحدة والثلاثين من عمره، وسيم وخفيف الظل يعيش مع أهله، يعمل معي في ذات المدرسة، استشعرت فيه لين قلبه ورقة غير معهودة في بني جنسه، وكان ذلك في نظري طفرة جينية حدثت للبشر؛ وكان هو هذه الطفرة. مرت شهور وهو يُزيد من إثبات ما استشعرته من رقتهِ ولين قلبه وحبه للناس، وكأنه ملاك يعيش بين البشر، أتى خصيصاً لي أنا كي يشير إلى جمال الحياة الذي لم أكن أدري أنه موجود. لم أرَ في يديه خاتم يدل على ارتباطه، ولأني أصبحت أكره الزواج لكونه مسؤولية استثنائية لا يقوى عليها سوى القليل من البشر، مسؤولية يكون فيها الطرفان لا ينتظران مقابل العطاء، فيتم العطاء بينهما كنهر نجح في شق طريقه من المنبع إلى المصب، فتمنيت أن تنشأ بيننا صداقة، ولأن ذلك لا يمكن أن يحدث أبداً في مجتمعنا فاتخذته صديقاً في خيالي، وبدأت حكايتي معه.

بدأت أراه في كل ما أقرأ وأرى، حواراتي معه لا تنتهي ولا تنقطع إلا بنومي أنا؛ فهو أبداً لا ينام. تتبعته على مواقع التواصل الاجتماعي، حُفرت في ذاكرتي كل صورهٍ له وكل كلماته، حتى أنني توهمت أن الجميل من كلماته كانت لي وأنا المقصودة. عشت في وهم كبير حتى بدأت أشعر كأنه معي، يحيا

معي، يندهش حين أندهش ويتألم لألمي، ويركض معي في الطرقات عندما أفرح، كنت سعيدة به في حياتي، في الواقع وفي الخيال، وفي كليهما كان حنوناً رقيق القلب يدعو بالخير لكل الوجود، كان حبيباً لي في صمت شديد، حتى وهو معي في الخيال لم أقلْ له "أُحبك" قط، وإن كنت قلتها مراراً في الواقع وفي الخيال، لكنها كانت مُخبأة في العِبارات والنظرات، كنا نعيش بنفس المحيط ونتنفس نفس الهواء، ونشاهد نفس الوجوه، ويتلاقى وجهانا كما تتلاقى خطواتنا في الطرقات من دون أن نتشاركها، فكان حبي له مثل وريقات الزهر المتساقط تحت أشجار الطرقات.

نداء، هل من متبقون؟

شقيقان صغيران هما المتبقيان من العائلة العتيقة الكبيرة، عائلة امتداد جذورها كامتداد جذور أشجار الزيتون والليمون على أرضهم، وامتداد ارتفاع النخيل لسمائهم، نفس السماء التي تناثرت فيها أشلاء أهل الأرض بمتفجرات غادرة، كما ينثر الفلاح بذوراً كي يجد بين أحضان ضلوعه أشجاراً غصونها تمتد بظلٍ رطبٍ في الصباح آملة في فك سياج القمع ويأتي بالحرية. وليجلس تحته من يحكي حكاية الأرض وقد اطمئن أن جذوره قد ازدادت خصوبة بدماء مطهرة، تكون جديرة بالتغذي من ثمارها. خرج الشقيقان من جحرٍ صغير بين الأنقاض التي باتت حمايتها ورعايتها كجد كهل يعتني بأحفاده، خرجا يريدان قمحاً، يريدان دقيقاً كي يصنعا خبزاً، خبزاً فقط. وكم سهل تواجده في بيوت مثلهما من البشر؛ خرجا للعراء بعد ما كان هناك بيوتاً وشوارع وحدائق ورغبات وآمال وطموحات وآهات وضحكات، خرجا ولم يجدا غير العراء المكتظ بالركام ورائحة الدم والغبار، خرجا ليضيفا لرائحة الدم من دمائهما، وللغبار من أكياس دقيقهما.

تعجبت

تعجبت كثيراً من لون عينيها السماوي، اللون الذي يحيطنا من كل مكان في ضمات النهار المتجلية في قلب كل من ينتظر الصباح، كيف التحمت عيناها بالسماء، فاقتبست من لونِها لونَ عينيها. وتعجبت أيضاً من قدراتها الفائقة على الابتسام رغم تحملها لآلام لا يتحملها سوى الكبار في حمل ونقل أواني الجبن القريش، والجبن القديم، والعيش البتاو، وعسل النحل، والعسل الأسود، والكشك الصعيدي. ابتسامة لا تعرف الانطفاء. فعيون بلون النهار، وابتسامة لا تنطفئ تتربع على الأرض في ثقة، ثقة إمبراطور على العرش، يناول ويزن ويحسب بكفاءة محاسب بشركة مخضرمة؛ وليست بكفاءة فتاة في الصف الرابع الابتدائي. فهل لون السماء هو ما زاد من منسوب ذكائها؟ أم أنها فتاة تسبق سنها في القدرات العقلية والجسمانية، رغم أن جسدها الصغير لا يوحي إلا بأنها أصغر من سنها، فزاد تعجبي.

أقبل علينا عدد ممن يريدون شراء الجبن القريش، بسهولة وتمكن أعدت أكياس تتراصّ بها مكعبات الجبن في تناسق وأمانة، إغلاق الأكياس وإعطاءها لطالبها ومعها ابتسامة ملائكية هدية. كنت قد انتهيت من شراء ما أريد، أعطيتها المال المطلوب، انتهت عملية شرائي، ولكني لم أستطع الذهاب، ربما أردت أن أطمئن عليها، فهي في عمر ابنتي التي أعرف قدراتها جيداً، فتمكن مني شعور أنها في حاجة لرعاية؛ لذلك مكثت في أجوائها. كان معي ابني الصغير ذي الستة أعوام يترقب الموقف، شعرت به يفكر فيما أفكر، ربما قد رأى فيها هدى أخته التي بنفس عمرها؛ وبمهارة الأطفال في إيجاد الاختلافات

حدد بسرعة كل الاختلافات التي تتضح بين ريم وهدى. وتأملت ملامحه أكثر فلم أرَ سوى التعجب.

تبنت قطاً

جلست بجواري تحكي ببشاشة وحب عن قطها، وبمشاعر جِد يحكي عن حفيده قالت:

- حبيبي ونور عيني، القط الصغير وأنا أطعمه بالأمس جلس كما الطفل، ولم يتحرك حتى انتهى من طعامه، ولامست وجهه ولامسني كأنه يشكرني، ويمتن لي فأمتن أنا لحبه لي.

تعجبت أنا الأم لخمسة أطفال، وتساءلت كيف لها إحساسها تجاه قط؟ وأنا ما عادت هذه المشاعر تنتابني تجاه أولادي الصغار؟!

كانت سارة صديقتي في الكلية، وكانت من أكثر الطلبة الملتزمين، لذلك لم تكن صديقة مقربة لي حيث كنت نادراً ما ألتزم، ومرت السنوات واجتمعنا مرة أخرى في مكان العمل، وقد حصلت على الدكتوراه وتزوجت ثم طُلِّقت من دون إنجاب. وحين تتكلم عن الزواج تقول:

- الزواج طريقة مشروعة لممارسة الأنانية، فكيف لإنسان أن يسمح لغيره أن يستغله جسدياً وروحياً ويمارس عليه أنانيته؟!

فهمت من كلامها أنها لا تُقر بفكرة الزواج. تقول عن البيت والأولاد: --- مسؤولية غير مرغوب بها على الإطلاق، ولا عذاباً يضاهي ضوضاء الأطفال بالبيت، فالبيت لا بد أن يكون هادئاً، ولا تكثر به الأصوات، لذلك أنا لا أتحمل فكرة أن أكون أماً تتولى مسؤولية صغار".

تُوفيت والدتها التي كانت الإنسان الوحيد الذي يؤنس حياتها، تحكي سارة عن والدتها فلا أتبين من ابنة من! فتتبدل حالها كما تتبدل حال الأزهار عندما يتركها الصيف ويأتي الخريف، أصبَحت لا تجيد الحياة، وظلت تتمنى الموت، وابتعدت عن مظاهر الحياة، وأحاطتها الوحدة من كل اتجاه. رفضت سارة فكرة الموت لأمها، ولكن أقرت بها لنفسها، فجحدت فعلته معها، فكيف له أن يأخذ والدتها؟! كيف له أن يأخذ منها أهم ما في الحياة؟! كانت تصلي لتدعو الله بالرحمة لأمها، ولكنها تكفر برحمة الله عليها. كانت تصوم لأمها ولكنها غير مكترثة لمن تتعبد وتصوم. ظلت تلوم نفسها على عدم اهتمامها بوالدتها المريضة، فكانت تنظر لنفسها كقاتلة، قتلت أمها بسبق إصرار وترصد. فبدأت بأخذ الثأر من نفسها، فبالغت في معاقبة نفسها، أضربت عن الطعام، اعتزلت الناس والحياة، باتت تتمنى الموت. حتى حين ذهبت إلى طبيب نفسي، لم يكن سبب ذهابها أن تأخذ دواء يحسن من حالها، بل ذهبت كي تسأله هل هي قاتلة أم مجرد ابنة مستهترة. ظلت تتداوى بأدوية لعلاج الأمراض النفسية، لعلها تأنس إلى وجود الله مرة أخرى. كانت سارة تحيا فيما يسمى بكومباوند تحيطه الأشجار والعصافير من كل مكان. ولكنها لم ترَ جمالاً في هذا، كانت على قدر كبير من العلم، ولكنها لم تكن ترى إنجازاً في هذا أيضاً. كما أن رحمة الله ولطفه انقلبوا إلى لعنة. لم تشعر أبداً أن الموت كان لطفاً من الله كي يرحم أمها من مرض لعين، لم تستطع معرفته كي تتمكن من وضع خطة للعلاج، وجدته لصاً سرق منها والدتها وكأنه يحسدها، ونعيم يستكثره عليها. أذكر ذات يوم رنّ هاتفي وكانت سارة، وبمجرد أن بدأت الحديث صدمتني بقولها "إن الله يأخذ مني كل شيء أحبه، وأن الله لا يتمتع بصفاته التي ذُكرت". أفزعني كلامها وبدأت في العمل على تهدئتها بكل الأساليب حتى هدأت. أعرف أنها

ليست ملحدة ولا أي شيء من هذا، ولكنها بحالة حزن في أقصى درجات العمق. وكانت كل مشكلتها في تلك المحادثة هو أن القط هرب منها في الشارع ولم تجده. ظلت تبحث عنه ثلاث ليالٍ، وأبلغت أمن الكومبوند، ونشرت إعلاناً على فيس بوك حتى وجدته ذات يوم في حديقة ما. وحينها تأكدت سارة من حبها الشديد له، وأنها لم تكن تعرف شعورها من قبل كما ينبغي. كنت أرى فرحتها حين تشتري له طعاماً، تماماً مثل فرحتي حين أسعد أطفالي بوجبة ما. تملكتني الحيرة، فكيف رفضت الزواج والحياة والأطفال؛ وترضى أن تأنس بقط صغير؛ حتى أنه أصبح بمثابة العائلة لها. قلت لها حينما شاهدت بشاشة وجهها حين تتكلم عنه.

- لماذا لا تجدي له قطة يعاشرها ويأتي لكِ بقطط صغيرة أكثر؟ حتى القطط تحتاج من يعبر معها الطريق.

- لا، لا أريد ذلك؛ فقد أجريت له عملية إخصاء، فهو لي، كيف له أن يأتي بزوجة وأطفال؟ فهو ملكي وحدي، كما أنه يحب الهدوء مثلي ولا يطيق مواء الصغار.

تعجبت أكثر، وسألت نفسي كيف لها أن تكره الأنانية وهي تمارسها، كيف لها أن تعبث بفكرة الإنسان وعلاقته بغيره من البشر والحيوانات حتى باتت العلاقات متساوية؟! ألم تشتقْ لسؤال "عاملة أيه النهاردة"؟! أو كلمة "وحشتيني"؟ ألم تشتقْ لكلمات تهز كيانها وتظل تتردد في سمعها ووجدانها؟! ولكني في الأخير شعرت براحة حين وجدتها فرحة وراضية ومستكفية، ودعوت الله أن يبارك لها فيه، وأن يبرها، كما أدعو لأولادي تماماً. إن للوحدة حقيقتين، الأولى هي أن الإنسان يفتقد نفسه، والثانية أنه يفتقد من يأنس له ويجد

معه نفسه، وربما في الحياة من يأنس لقط، ولكن كيف سيجد به نفسه؟

وإن فُقد الحب

أتت إليّ طالبة بالصف الأول الثانوي تريد أن تتحدث عن مشكلة تواجهها، وإنها حين أفاضت بتلك المشكلة إلى صديقتها نصحتها بأن تحكيها للأخصائية الاجتماعية بالمدرسة، وأنها لجأت إليها في مشكلة حدثت لها مؤخراً ووجدت عندها طرق للحل لم تستطع الوصول إليها بمفردها.

في بداية الأمر كان التردد يملأ نبرة صوتها ونظرات عينيها، تحدق بي بشدة وكأنها تريد أن تقول "هناك أحاديث أخرى غير ما سأرويه لكِ، فاعلميها لأني لن أكون قادرة على رويها". فأخذ الحوار مساره نحوي مُركّزاً راجياً الفهم لشدة تعسره. قالت:

- إن أبي يكرهني، ولا أُنكر أنه يحاول أن يحبني؛ ولكنه يفشل بذلك.

قلت لها وأنا أُخفي عنها حزني وحيرتي، وبدوت كأنني أسمع كلمات عادية:

= ولماذا يكرهك؟

- لا أريد أن أتحدث عن صفاته؛ رغم أنها من الممكن أن تكون حلاً لكل ألغاز ما أمر به، لكنني سأكتفي بأن أتحدث عن أخطائي أنا.

= كما تشائين.

- هو يقول إن نهايتي كانت مع بدايتي، وإن حبه لي منتهي منذ البداية، أخطاء طفلة، ثم أخطاء فتاة مراهقة، فهل من الممكن لأب أن يكره ابنته حين يراها تخطئ؟ أليس عليه أن يرشدني بدلاً من تركه للبيت في كل خطأ يعكر صفو البيت التي جاهدت أمي في أن يملؤه؟! أعترف أن أخطائي كانت كثيرة، ولكن هل يوجد أطفال بلا أخطاء كثيرة، وهل يوجد إنسان لا يخطئ وهو في بداية اكتشافه لنفسه والعالم من حوله؟! لي كثير من الصديقات قد أخطأن نفس

الأخطاء، بل وأكثر، ولم يكن ردود أفعال آبائهم مثل أبي، فما زالوا يحتفظون بحب آبائهم لهم، فلماذا فقدته أنا؟! كما أنه تنحّى عن نصحي وإرشادي، واكتفى بأن ينتظر المزيد من أخطائي.

سألتها بعد أن أحطتها بحضنٍ لم يطل، ولكنه لملم قواها التي تبعثرت أثناء حديثها:

= هل تعلمين لماذا لا يتمكن جميع الطلبة من الوصول إلى التعليم الجامعي؟

نظرت إليّ نظرة متسائلة، فأجبتها:

= لأنهم غير متساوين في الإرادة، منهم قوي الإرادة ذو نفس طويل، ومنهم سريع اليأس والغضب، يبدو أن أباكِ من النوع الثاني، إنه يحبك بالتأكيد؛ ولكنه لا يستأنس المشقة والتعب. فعليكِ أن تسرعي أنتِ إليه ناسية ما مضى، كي تكوني أنتِ إرادته المفقودة، وعزمه على تحقيق ما لا يستطيع فعله وتحقيقه. أرأيتِ إن كان عصفوراً مضى ما مضى عليه وهو يبني عشاً لأولاده من القش، غير قادر على الإتيان بالغصون، وصغيره قد كبر واشتد عوده، ألن يأتي الجميع بالغصون؟! فعلينا ألّا نتوقف عند حدود الماضي، وإن كانت حدوده غير مستوية فعلينا أن نقوم بتعديل ما لم يستطع آباؤنا فعله، كي يكون لدينا مكان أجمل نحيا فيه، حينها سيتمكن الجميع من رؤية الحب المفقود داخل كل منا، ذاك الجمال الذي تاه في تلك الحدود القديمة المضللة.

ابتسمت الفتاة، وجففت الدموع التي فشلت في الاختباء. وقالت:

- فهمتُ جيداً، وسأعود إليكِ ربما قريباً، ومعي إنسان جديد لا يؤمن بوجود الكراهية، مؤمناً فقط بالبحث عن الحب إن فُقد.

صندوق الأكاذيب

على طاولة في نادي ليلي قابل عادل رُميساء. الفنانة متعددة المواهب، الفاتنة، التي ترنو إليها الأنظار، وأنوار تُعمي البصائر وتقوي البصر. فسألت عادل بأسلوب ينم على الإعجاب:

-ما اسمك؟ وبِمَ تعمل؟

رد متفاخراً بنفسه:

-اسمي عادل، رجل أعمال.

انبهرت بأناقته وشكله الجذاب، ثم قالت له بأسلوب أنثوي رقيق عندما رأته يهم بالانصراف:

- هل سنراك هنا بعد ذلك؟ فإننا نحب أن نراك.

أجاب مبتسماً:

- بالتأكيد، يكفيني أنتِ.

ثم غمر النادل بالمال وتباهى بكثرته أمام كل الموجودين، وطلب من رُميساء أن يستأذن للانصراف؛ على وعد بالعودة، وذهب. سار بالليل المظلم في طرقات يعرفها والبعض لا يعرفها؛ حتى جلس على مقعد أمام النهر، وكان ضوء القمر شديداً، وحوله القليل جداً من المارة، والخافت من صوت السيارات. لا أدري هل كان خافتاً أم كان هو لا يسمعه بين ضجيج محادثته لنفسه، فوجد نفسه يسأل نفسه بصوت عالٍ "من أنا؟" حتى أن القمر قد سمعه، وأخذ يردد السؤال في تصاعد من الصراخ؛ "من أنا؟".

هدأ قليلاً وأجاب نفسه:

"أنا إنسان كاذب، كذبت على رُميساء؛ والتي هي أيضاً بالتأكيد كاذبة، فهي تعطي الحب والإعجاب لكل من معه مال، وإن ذهب المال ذهب الحب والإعجاب، فيا لها من مصداقية! وماذا عن زوجتي التي طالما كذبت عليها حتى دفعتها للجنون؟! كم مرة كانت باحتياجي وتحججت أنا بالعمل؟! العمل الغير موجود، ولكني أوجدته كي أهرب منها لأغراضي التي لا تنتهي. وماذا عن أولادي الذين لا يختلفون كثيراً عن أمهم؟! إلا أنهم لم يكونوا سيّئي الحظ،

ولم يمسهم الجنون؛ ولكن ما مسهم هو انهيار ثقتهم بي، إنهم يعلمون أنني لست دائماً بالعمل كما أدّعي، ويعلمون أنني لا أبالي بهم، ولا بأي حال يكونون، كم مرة طلب مني ابني الأكبر البالغ من العمر سبعة عشر عاماً أن أشاركه حواراً؟ لم أهتم حتى أن أعرف عن ماذا، وكم مرة ارتمت في حضني ابنتي الصغرى ذات التسعة أعوام؟ ولم اتنبه أنه عليّ ضمّ ذراعيّ حولها أنا أيضاً، كم مرة نادتني زوجتي بأعذب الكلمات وبأرق الأساليب؟ وأنا شارد الذهن عنها كأنها تُحدث نفسها، كم مرة رأيت زوجتي جالسة وحدها تبكي؟ وأوهمتها أنني لا أراها حتى أتهرب من معرفة ما يبكيها، فأتجنب واجب آخر لا أريد أن أفعله. وماذا عني؟ هل أكذب على نفسي أنا أيضاً؟ هل أنا رجل أعمال؟ هل كل ما تركته في الملهى كان مالي؟ لا، أعرف أن كل ذلك غير حقيقي، فأنا مجرد خادم لأخي الثري، وكل المال ماله. أنا نفسي ملكه، ولكنني أكذب على حالي وأصدق أكاذيبي، فأنا بارع في خلق الأكاذيب المتقنة حتى تتمكن مني فتجعلني أصدقها. ولكن لماذا كل هذا الكذب؟ لماذا أبتعد عن الحقيقة دائماً؟ لماذا لا أعطي بيتي حقه ولا أهرب ممن حصد أذهانهم الانتظار؟ هل فعلاً أكره زوجتي أم هذا أيضاً كذبة كي أتحرر من السجن الذي صنعته لنفسي؟ وهل أولادي أيضاً سجن لا أقوى على التواجد فيه؟ فأنا لا أستطيع أن أكون لهم. أنا لا أستطيع إلا أن أكون لنفسي.

"ولماذا تكذب على نفسك وتتوهم أن المال مالك وتنفرد بنفسك والمال دون أحد؟"، ثم أخرج المال من جيبه وقال له "أجبني أيها المال، هل أنت ملكي أم لا؟" فأبى المال أن يجيب. فأعاد السؤال فلم يجب. تجرّد عادل من هدوءه تماماً، وأخذ يصرخ بالمال، ولا يزال المال صامتاً، فجاءه رجل عجوز كان يجلس في هدوء الليل متأملاً ليل النهر، ولكنّه في هذه الليلة تأمل عادل؛ حتى أنه أنصت لكل ما قاله عادل عالياً وما قاله بداخله، فوجد أنه لا مفر من الاقتراب منه والتحدث إليه:

-اهدأ أيها الرجل، هل فقدت صوابك؟

نظر له عادل نظرة استحياء من نفسه، ووضع يده على وجهه وقال له:

- نعم، فقد فقدت صوابي منذ أن رضيت على نفسي أن أكون خادماً ومخادعاً لأقرب من حولي، حتى التي أعطتني عمرها، وأولادي الذين لا يعرفون رائحة حضني لسنوات وسنوات.

-إذاً وماذا حل بك الليلة؟

أجاب عادل:

- لا أدري، فجأة فقدت رغبتي في رُميساء التي تُبعثر حُسناً وأنوثة، على عكس ما كنت أخطط، وفقدت رغبتي في المال؛ فسرت أبعثر هنا وهناك، وفقدت رغبتي في حمل نفسي، رافضاً أن أشعر بها، وأود الخروج من نفسي فأنا لا أطيقها.

نظر له العجوز نظرة خيبة أمل وقال له:

- كما لفظت نفسي أنا أيضاً منذ سنوات؛ فتركتها وأصبحت ذلك الذليل، ليس ذليل للناس ولكن ذليل لحالي، أبحث لها عن نفس أخرى كي تتقبلني فلا أجد؛ فقد فات الأوان ولم يُجدِ البحث عنها، أتعلم أنني أحرقت ابنتي حرقاً؟

قال عادل فزعاً:

- كيف ذلك؟

قال العجوز وقد بدأت الدموع تجري على وجهه كمجرى نهر فُتحت له بوابات السد:

- حرقتها حين لم أرد على الهاتف، لأنني كنت برحلة بحرية مع أصدقائي، وقد أخذنا اللهو مع فتيات أتينا بهم لننعم معهم بلذات أدمناها، وثرثرة بالغنا فيها، وقد كانت ابنتي وحدها في البيت، عندما خرجت زوجتي لتأتي للبيت بأغراضه، وقد شب حريق هائل بالبيت بسبب ماس كهربائي، نتج عنه تفحم كامل لكل ما في البيت بما في ذلك ابنتي الصغيرة؛ التي حاولت أن تستغيث بي ولم تجدني، كانت تأكلها النيران وتأكلني الملذات، فأنا لست فقط بكاذب مثلك، أنا قاتل أيضاً. أما أنت فما زالت الفرصة أمامك، اذهب الآن لزوجتك وأولادك، من المؤكد أنك ستجد هناك نفساً تتقبلك، ولكن قبل أن تذهب اترك هنا كل أكاذيبك، وأنت أعلم الناس بها. فَهُم الماء والشمس والهواء لنفسٍ من الممكن أن تزهر من جديد. ولا تعود أبداً كي تبحث عمّا تركته هنا؛ ففي العودة ذبول لا رجعة فيه.

اطمئن قلب عادل لما سمع، وكأنه كان يريد أن يسمعه كي ينفذه، ولا يسمع لصندوق الأكاذيب الذي يحمله. فنظر لنفسه من قدمه حتى صدره، وكأنه يودع نفسه وداعاً أخيراً، تاركاً صندوق أكاذيبه على المقعد؛ لعله يهيم مع هواء الصبح البارد ويتشتت ويفنى، وجرى متلهفًا إلى حيث ذهب.

وقف العجوز بدموعه يتذكر ما قد مضى من حياته، وتمنى لو استطاعت زوجته تحمّل رؤية ابنتها الوحيدة وهي جثة هامدة؛ ولم يتوقف قلبها لتذهب مع ابنتها إلى ربهم دون رجعة، وتمنى لنفسه رحمة من الله، وأن يأخذه إليهما كي يتوسل لهما ببعض من التسامح، ولكن الله له قدر آخر غير الذي يرجوه.

بلا حق

أدرك عبيدة أن من الحِكمة اتّباع العقل، لأن في الطرق التي يفتحها القلب يوجد الهلاك. في التاسع عشر من أكتوبر عام ٢٠٢٢ انطلقت صرخة من قسمت "عايزة أتطلق". وكانت الصرخة بمثابة عصى فتوّة يعمل على الدفاع ضد سارقي حارة مشهورة بالقهر فقسم ظهورهم نصفين:

-كيف يا قسمت؟ لماذا أصبح الجفاء يملأ صدرك تجاهي؟ أين حبك لعبيدة؟ بماذا أخطأت؟

- زهقت.

- يعني ايه زهقتيِ؟ والبيت والبنت الصغيرة اللي ملهاش ذنب؟ والحياة والأحلام اللي رسمناها سوا؟!

- أنا ماشية، أنا زهقت من الأحلام، والبنت هتفضل معايا، وشوف هطلقني امتى.

اختفت من أمامه تاركة صدى صوت ارتطام باب الشقة يلهو فيها.

دخل عبيدة الشرفة كي يترقب خروجهما، لكن من دون جدوى، وقد تذكر أن بيت حميه في نفس العقار. دخل الغرفة وقد أوصد بابها خلفه بإحكام، كأنه خائف من شيء ما سيدخل وراءه وينهال عليه بالضرب. جلس في المكان الذي كان يحمل دفئها ليجده ما زال موجوداً، كان يعلم أنه سينتهي، كان يسمعه ينادي على نفسه كي يرحل هو الآخر. ما السبب في أنها تريد الانتهاء مني؟ وأنا لم أكن مشغول إلا بها. كانت كل رغباتها بين يديها، كل راحتها ورغباتها فوق أي مقام وغاية؛ كانت تتركني وحدي أعاني من الوحدة كي تهنأ هي بوالدتها ووالدها، وكي يساعداها في رعاية البنت. رضيتُ أن أسكن في عقار والدها، وتركت المسكن الذي قد أعده والدي كي أكون بجانبه وبجانب أمي وأخواتي البنات. تركت رغباتي كلها وسرت أسيراً في الطرق المؤدية لتلبية رغباتها، مرت الأيام في ذلك الانفصال الغريب الذي انقض عليّ بدون سابق إنذار؛ حتى طلب أن يقابل أباها. وبالفعل ذهب ليقابله ويفهم منه ما المطلوب منه.

- قسمت عايزة الطلاق، ولو مش هتطلق حنرفع قضية خلع والكلام انتهى.

- مش هطلق.

-براحتك.

عاد عبيدة في نفس اليوم من عمله ليجد كل أثاث شقته قد اختفى، فذهب مسرعاً إلى بيت حميه.

- أخذت أثاث بنتي ما المشكلة، وأمامك أسبوع كي ترحل من هنا لنتمكن من تأجير الشقة. ذهب عبيدة ليقيم مرة أخرى في بيت أبيه، ليستيقظ ذات يوم على طرق الباب فإذا به مُحضر ليسلمه إعلان حضور جلسة في المحكمة. ذهب إلى قسمت وطلب أن يقابلها فوافقت.

-(بعيون حزينة) لماذا كل ما وصلنا إليه؟

- كنت أريد أن أكون أماً وقد كان، أما الآن أريد أن أعمل والتفت إلى مستقبلي من دون إزعاج من أحد.

- من دون إزعاج؟! انا إزعاج؟ كنت ألبي لكِ كل طلباتك.

- نعم وكان لك متطلبات أيضاً، وانا لا أريد أن ألبي طلبات أحد. وذهبت.

فهم عبيدة رغبتها في التحرر، وأنه كان وسيلة لا أكثر كي تكون أماً. بالفعل وقع الانفصال بالقانون وأعطاها القانون حقها. ونسي أن يعطي لعبيدة حقه.

رجل بروح تنين

على الرغم من ترك أبي للبيت أيام وأسابيع، فإن حضوره النادر بالبيت لم يجعل منه أباً معطاءً ولو بقدر بسيط، فدائماً كان وجوده ممتعضاً متصيداً للأخطاء، غير مهتم بالتقرب من أي أحد منا، ولا حتى من أمي. كنت أتعجب لماذا كان يعاملها معاملة جافة، وهي التي كانت تستقبله بمنتهى الحب، والحرص على أن يكون كل شيء بالبيت جميل، وهادئ، وجدير باستقباله. كانت تصنع له كل ما يحب من طعام، وتقدمه بأجمل الأنماط، وتقطع له الفاكهة المحلاة بالعسل وعصير البرتقال. لم تكن تجلس إلا تحت قدميه، كنت أحزن عليها عندما أجده لا يهتم بحديثها، ولا حتى بالنظر إليها! كانت نظراته تتجه لكل شيء إلاها، وكل محاولاتها لم تكن تبوء بالفشل فقط، بل كانت تبوء بجروح وبدايات أخرى للتعاسة، وفرط أكثر بالاهتمام بالبيت؛ لربما تزهر شجيرات لبذور الأمل التي لم تمل من نثرها في كل وقت، وفي كل مكان.

كان أبي دائماً غير موجود، ولكنه كان بخيالها موجود، كل شيء كانت تصنعه كما يروق له كأنه موجود، قد كان لأبي مقعده الخاص في غرفة المعيشة بجانب الشباك الكبير، ولم يكن مسموحاً لأحد منا أن يجلس عليه، ودائماً مكونات الوجبات المحببة له موجودة، ومتأهبة لكي تتحول إلى وجبة شهية في أي وقت. دولاب أبي كان محمية طبيعية، وكل شيء فيه محل اهتمام. لم تكن أمي ترتب فقط؛ بل كانت تحب، كانت تحب أشياءه بدلاً منه، فهي المتاح لها. دائماً كانت في حالة انتظار واشتياق لم ينطفئا. في كل مرة يأتي إلى البيت تقف أمامه بأجمل ثياب، ورغم ذلك يجلس هو على مقعده، وكالعادة تذهب عيناه إلى أي شيء سواها؛ لتجلس حزينة شاردة حتى يأتي موعد النوم، لتجده يقول " أروى، اذهبي للنوم"، ويأتي ردها "لا، أود البقاء معك". فيعيد بغضب "اذهبي للنوم"، فتذهب.

وذات يوم تأخرت أختي الكبرى عن موعد عودتها من التمرين، وكان النادي قريب من البيت، فطلبت أمي من أبي أن يذهب إلى النادي لنطمئن عليها، لعل مكروهاً حدث لها، فيسعفها وينجدها، لو كان الوقت مبكراً لما طلبت منه ذلك، ولذهبت هي بنفسها؛ فلم يستجب أبي، وانتظر عودتها، ولم يكن يبدو عليه أي اهتمام. وبمجرد عودة أختي انقض عليها كالتنين، واللهب قد حجب الرؤية، لم تستطع أمي ولا إخوتي أن يحموها منه، ضربها بكل ما يملك من

قوة؛ كأنه شرطي يضرب مسجوناً لا حول له ولا قوة، المؤلم أنها لم تصرخ؛ بل كانت تتقبل ضرباته لها بصمت وعيناها في عينيه. انتهى من تفريغ شحنة الغضب لنجدها جثة مليئة بالجروح والإصابات في الوجه والجسم، وذهب هو لمحل نومه مسرعاً ليغط في النوم. رأيت أمي وإخوتي في حالة ذهول، ولم نعد نريد معرفة سبب تأخر أختي، نمنا جميعاً بجانبها، وبمجرد أن أتى الصباح ذهبت أختي بجروحها إلى بيت جدي. وحضّرت أمي وجبة الإفطار، وعندما استيقظ أبي وعلم أن الإفطار صنفه الوحيد هو الجبن، غضب غضباً شديداً وانهال على أمي بألفاظ فظة وحقيرة، وارتدى ملابسه، وخرج دون حتى أن يغلق الباب. ذهب وذهبت نيرانه معه.

أتذكر أن أمي روت لي أحداثاً مثل هذه تماماً قبل مولدي بالضبط، قبل أن تعرف أنها حامل بيوم واحد، حيث كان أبي أخذ أمي وإخوتي، وابن خالي الصغير البالغ من العمر خمس سنوات، وابن أخته وعمره أربع سنوات للذهاب إلى نزهة، وبمجرد عودتهم إلى البيت بدأ في عنفه، وحينما كانت تحضّر وجبة العشاء سمع أصواتنا نتشاجر، فارتفع صوت أمي تناشدنا الهدوء وهي تضع الطعام، فوجدوا أبي يصرخ بهم، ويلقي كل شيء أمامه حتى أن زجاج بلورات الإضاءة تفتّت في ما صنعت من طعام، ثم ارتدى ملابسه وذهب، وبمجرد وصوله للطريق اتصل بها لتسمع كلمة واحدة "أنتِ طالق"، تصف لي أمي مشاعر حزنها بحملها بي، ومحاولات الإجهاض الفاشلة لخوفها أن تواجه أهلها بحملها وطلاقها معاً، مثل من يُعلن أفراحه ولديه من الأحزان ما يجبره على إلغاءها، ثم جئتُ أنا لأرى التنين بنفسي فلم اتعجب من حكاية أمي.

قُلتُ لنفسي

في يوم من أيام الشتاء الحزينة المليئة بضجر دقات الساعة، وأصوات نفسي الحزينة لرؤية ذكريات كلما عادت إليّ نهرتها، فالندم رغم أنه ملاصق للذكريات الحزينة فإنه بلا قيمة، عديم الفائدة، يزيد الألم بآلام أكثر، فبدلاً من أن نستطيع الفرار منها، نجده يُقيّدنا؛ فلا نستطيع الفرار. قررتُ أن أتكلم مع ليلى بدلاً من أن أتكلم مع شخص آخر، فقد تحدثت إليها ذات يوم حين جمعتنا محاضرة عن الصحة النفسية، وكيف نتغلب على الشعور الحزين. ربما أجد عندها باباً مفتوحاً للحديث؛ وربما لا ينغلق. ففتحت صفحة الواتس آب الخاصة بها. وبدأت أقول لها:

-كيف حالك جميلتي؟ اشرحي لي كيف حالك أولاً، ثم أنا بدوري سأطيل عليكِ بوصفي لحالي، التي باتت غير واضحة، تستطيعين القول إنها باهتة أمامي ولا أراها جيداً كي أصفها لكِ. ولكني سأجتهد في وصفها؛ ربما أتبين شيئاً عنها في حديثي معك.

ردت عليّ ليلى بعد أن ظلت تكتب (typing) كثيراً، ظننت أنها رسالة طويلة، ولكني فُوجئت بأنها صغيرة جداً:

- الحمد لله.

-أنا لا أعد جملة (الحمد لله) إجابة على سؤال كيف حالك. أنا أستخدمها للرد على السؤال، في حين عدم قدرتي على وصف حالي، أو لأن الشخص الذي يتحدث معي لا أعرفه، ولا توجد ضرورة كي يعرف هو عن حالي شيئًا، أو عندما أكون غير قادرة على وصف حالي، لأنني لا أدري عنها شيئاً بالتفصيل غير أنه ليس جيداً، فأضطر لقول "الحمد لله" بدلاً من قول "ليس جيداً". لأن معناها جحود ما. ألا تشاركينني رأيك في هذا الشأن؟

ردت ليلى في رسالة قصيرة من كلمة واحدة:

- بالفعل.

فسألتها سؤالاً آخراً ربما تجيبني باهتمام هذه المرة:

-ألا تحبين الحديث؟

- ربما.

فاستشطت غضباً وسألتها: لماذا لا تبادليني حالي والاهتمام الواضح في رسائلي؟

ردت ليلى في رسالة قصيرة مرة أخرى:

- لا أدري ما المفترض أن أقوله، قد يخونني التعبير عمّا أود قوله.

قلت لها: وكيف يخونك تعبيرك؟

قالت وفي نبرة صوتها تردد واضح:

- لأنني أصبحت لا أجيد الكلام، فقد كنت مثلك من فترة ليست طويلة وليست قصيرة، كنت أبحث عن إنسان أحادثه، يشاركني اندهاشي في بعض الأمور، فما زلت حتى الآن أندهش وقد بلغت من عمري الكثير. إنسان يشاركني كلمة صباح الخير بطاقة تطلق إرادة لعمل اللا متوقع من قدرات متوقعة، يقول لي تصبحين على خير الدنيا، ويرسل لي زهرة كل يوم بلون مختلف. إنسان مرهف القلب تملأ الدموع عينيه ألماً وسعادةً، ينبض قلبه حرصاً ومشاركة لنبض قلبي حين أُحادثه. إنسان ينتظر القمر ويخاطبه بشأني إن حزنت، وينتظر رده حتى يعلم منه كيف يسعدني. إنسان حين يصف ما يشعر به يكون كلامه نهراً عذباً بعمق بريء، عيونه بمجرد النظر إليها أرتمي في أرض وطن حانٍ لا يعرف الظلم أبداً. ولم أجد أي شخص لمثل هذه الأمور التافهة. فقررت أن أكتب لشخص ما في خيالي، وأسميته حبيبي، كنت أود أن أقولها؛ فسميته بها، ولكنه قط لم يرد عليّ "يا حبيبتي"، ولم أستقبل منه أي رسالة. لأنه أبداً لن يستطيع الرد، لأنه كان أنا، فأدركت أنه يسمع ويقرأ فقط من دون إجابة لأي شيء، من دون مشاركة لأي شيء؛ فحزنت كثيراً وتركته، وبدأت أبحث في الأغنيات الساحرة عن نفسي ومشاعري، فوجدت نفسي في الألحان؛ فاتّخذتها صديقاً وأحببتها، لكن سرعان ما فشلت أن تطربني بالمزيد عن وصف حالي وحالها، فشلت الأغاني والألحان أن تحدثني أكثر، ففي كل تلك الفترة نسيت كيف يكون الكلام، فأصبحت إنساناً لا يجيد الكلام، ولكنه يجيد السمع.

- إذاً يا ليلى قد ظلمتك، فحالك يا لها من حال، دعيني أراكِ، لماذا لا تضعين صورة بروفايل على الواتس آب كي أراكِ وأعرف ملامحك؟

قالت:

- حسناً، سأرسل لكِ صورتي.

فرحت بالرسالة وفتحتها، لكنني حزنت حزناً شديداً، فبمجرد أن رأيتها فإذا بها صورتي، صورتي أنا. كنت أتحدث لنفسي، كنت أراسل نفسي، وقد علمت منها أنها أصبحت غير قادرة على الكلام، ويا لنا من متشابهتين؛ فأنا أيضاً أصبحت غير قادرة على الكلام. إذن سأدعو لها بالمعافاة وسأدعو لنفسي.

الاحتلال

لم يمر الظلم مسرعاً. بينما كان مازن يلعب في حديقة منزله بزيه المدرسي، القميص الأبيض والبنطال الكحلي، وكانت أمه تعد وجبة الإفطار، كان مازن في الصف الثاني الابتدائي، وكان يحب كرة القدم، ويتدرب عليها في الملعب الموجود في ساحة قريته، وكان يحلم بأن يصبح لاعباً عالمياً، كان مازن ذا بشرة بيضاء تميل إلى السمرة، وشعر بني، ملامحه ملامح شرقية ولهجته شامية.

نادته أمه: تعالى يا مازن، لقد انتهيت.

ترك مازن ألعابه تحت أغصان الريحان، وكأنه يستأمنها على ثروته الثمينة.

دخل في حضن أمه وساحة مطبخها، مستمتعاً برائحة الخبز الطازج، واصطفاف كرات الزيتون في طبق مزين بالورود الحمراء، وتحيط بها الوريقات الخضراء، ورائحة البيض المطهو في زبدة ببياض الطبيعة. ثم انضم إليهما والده يحمل جريدة اليوم، ليتلقّى منها الأخبار، فإذا به مرتجف وخائف مما قرأ؛ فنظر بخوف وكأن كل مشاعره أصبحت فقط خوفاً وقال لهما:

- إن البلاد في حالة حرب، وقد احتشدت الجيوش من الجانبين، وعلينا الالتزام بمواعيد حظر التجوال، كما علينا ألّا نخاف إذا ما سمعنا أصوات طائرات أو حتى انفجارات، وعلى مازن ألّا يلعب في الحديقة.

سمع مازن كلام أبيه ولم يفهم سوى أنه لن يلعب في الحديقة مرة أخرى. تناول إفطاره وأخذ معه بعض منه مغلفاً ليتناوله في فصله، بينما هو بجانب زجاج حافلة المدرسة شاهد جنود تسير في اصطفاف والتزام، ودبابات انتشرت في كل مكان. دخل فصله، وكانت الحصة الأولى لمادة اللغة العربية.

سأل المعلم: هل تعلمون يا أولاد ما هو الاحتلال؟

لم يجب أي منهم، فقد كانت الكلمة جديدة على آذانهم.

فقال المعلم وصوته حزين: الاحتلال هو أن يأتي شخص يُخرجك من بيتك، ويعيش هو فيه، يلعب بألعابك ويأكل مما صنعته أمك ومما جاء به أبوك.

سأل مازن وهو مضطرب: وأين نذهب نحن؟

أجاب المعلم الحزين: سنعيش تحت الأشجار لفترة، وبعدها لن يكون للأشجار أثر إذا ما ازداد القصف، ثم لا نجد سوى الركام والحطام وبقايا البيوت، فنتخذ من دفئها الماضي بيوتاً.

لم يكتفِ مازن بسؤاله، وأخذ يسأل السؤال الثاني: وهل من الممكن أن نعيش هكذا؟

فأجاب المعلم: لا يا مازن بالطبع، ولكن الحرب تجردنا من كل شيء حتى الممكن والمستحق، فلا يوجد لدينا سوى اللا ممكن، كما أنه لن ينقضي الوضع على ذلك فقط.

فردّ التلاميذ كلهم في نفس واحد: وماذا بعد ذلك؟

قال المعلم: سنجد الكثير من الموتى حولنا، والأشلاء، بعد كل قصف، لنجد أننا في حاجة للإسعاف والخدمات الطبية، ولن نجد.

انزعج الأطفال كثيراً مما سمعوا، وقال أحدهم: كيف لا نجد؟ إن والدي وأمي أطباء في مستشفى المدينة؛ بالتأكيد سوف ينقذان أي جريح او مصاب.

رد المعلم فرحاً به: ولكن يا بني الحرب وما ترسله من قصف من الممكن أن يدمر المستشفى أيضاً؛ حتى لا نجد من يسعف. إن الغرض من الاحتلال هو أخذ الأرض والتخلص من أهلها، حتى يهنأ هو بكل خير فيها.

ثم زاد في وصفه قائلاً: كانت الحروب على مر الزمان موجودة، والبشر دائماً فيهم من يحبون الدماء، واغتصاب الخيرات لذلك يلجؤون إليها، ومع تطور العلم والأسلحة أصبحت الحروب سهلة جداً، حيث تقام الحرب بلحظة، وتباد مدن كاملة في نفس اللحظة، بلادنا بالأخص تحت عين المحتل لكثرة خيراتها وجمالها، فبضغطة زر من الأزرار –بسبب تقدم التكنولوجيا- قادرة على أن تجعل النار تلتهمنا جميعاً في غمصة عين.

خاف الأطفال الصغار وبدأوا في البكاء.

فقال المعلم: يبدو أن الأمر حزيناً جداً يا أولاد، ولكن هل تعلمون أن الموت في هذه الحالة لا يكون أبداً موتاً عادياً، بل هو شهادة، وأن الشهيد يمر بلحظة للجنة مباشرة، وكأنها باب لا يراه سواه بين تلك الأرض وتلك الجنات الخضراء ذات الأشجار الكثيفة والأنهار.

ابتسم الأطفال واطمأنوا، ودق جرس المدرسة، وإذا بصوت عالٍ يفيد بأن على كل الأطفال العودة إلى بيوتهم، وأن كل الحافلات منتظرة بالخارج كي تعيد الأطفال بأمان.

وفي طريق العودة وجد مازن أن أعداد الجنود والدبابات قد ازداد وانتشروا في كل مكان.

ترك مازن الحافلة ومكث واقفاً أمام بيته الجميل ذي البوابة الخشبية القصيرة، والحديقة الممتلئة بأغصان الريحان والنعناع والياسمين القرنفل والفل. كانوا مثل الأطفال الصغار وسط أشجار الليمون والزيتون الأقوياء. وشباك مطبخ أمه الذي تطل منه أجمل روائح الطعام. دخل الحديقة ليجد ألعابه ما زالت مكانها في أمان وقد تمكن الريحان من حمايتها.

وفي اليوم التالي استيقظ الجميع على أصوات الصواريخ والقصف، ومن العجيب أن مازن لم يخف، وفهم ما يجري حوله بسرعة. فأسرع باتجاه شرفة حجرته المطلة على الحديقة كي يطمئن على ألعابه فوجدها مكانها ولكن سرعان ما تلونت الألعاب بلون الدماء.

شيء من الكورونا

هب واقفاً مفزوعاً حين شعر بأعراض الكورونا تظهر عليه، فعزل نفسه وسكب الكثير من الكحول والمطهرات داخل كل الغرف والمطبخ والأدوات، وأمر زوجته بأخذ أطفاله سيف ويس والذهاب إلى بيت أهلها خوفاً عليهم من العدوى، فاستجابت وذهبت.

كان هذا في شتاء 2020 حين جلس محمد وحيداً يتابع الأخبار، ليعرف كيف لفيروس صغير استطاع عبور حدود العالم في أقل من شهر، حتى وأنه أمات الكثيرين لجأ محمد إلى إنجاز عمله من البيت فأصبح لديه الكثير من وقت الفراغ، وأصبح متابعاً نهماً لمواقع التواصل الاجتماعي، حتى وجد فتاة جميلة؛ بدا ذلك من منشوراتها، فاهتم بها وبما تنشر. وبعد الكثير من الاهتمام قرر التواصل معها، فاستجابت حتى تطورت العلاقة بينهما، حتى أصبحت علاقة حية تخللها اللقاءات الرومانسية المليئة بالحب والأشواق، واستمرت حتى بعد عودة زوجته وأولاده، الذين عادوا ليجدوه إنساناً آخر لا يعرفونه، أصبح لا يجيد الحوار معهم، فازداد انفراده بنفسه، وغيابه عن البيت، وكم فاضت عينا زوجته بالدموع، وكم انتزعها الحزن من نومها واطمئنان قلبها! فضّلتْ الصمت وأخفتْ آثار البكاء والحزن في أماكن شتى في شرود نظراتها.

قرر المتحابان أن يتزوجا سراً، وبالفعل تزوجا وكانا سعداء، وأطلقا على الحياة اسماً جديداً وهو "قلبنا الجديد"، وسريعاً ما أصبحت حامل. فجاءهما الخبر يعكر عليهما صفاء تلك الحياة الجديدة. فقررا أن يتخلصا من ذلك المخلوق الغير مرغوب فيه، وبالفعل لجآ إلى طبيب لبى لهما طلبهما. وعادت حياتهما من دون ذلك التهديد، ولكنهما لم يعودا كما كانا، قد وجدت الفتاة نفسها بعيدة كل البعد عن الأمان؛ فلم تعد تحب محمد، وهو أيضاً لم يعد يشتاق إليها. تبدلت مشاعرهما بداخلهما؛ وكأن لعنة أصابتهما كي تقتص لكل من تأذوا من هذه العلاقة التي كانت مثل الكورونا تقتل وتصيب.

في زمن التعويم

لم ينم محمود، ولم يستطع منع نفسه من تذكر يومه الصاخب، والذي امتلأ بالضجيج في نهار رمضان؛ حتى قبل أذان فجر اليوم التالي ببضع ساعات، منذ أن وُضع أمامه الكثير من اللحم والدجاج والكثير من مختلف أنواع الطعام على مائدة الإفطار عند عمه أحمد العائد من السعودية، الذي قد دعى أهله وعائلته وجميع أقاربه وجيرانه للإفطار.

تساءل محمود لما كل هذا الإسراف في الطعام وهم يعلمون جداً أن مصيره صناديق القمامة؟! ألم يكن خيراً من كل ذلك أن يصل عمي رحمه بزيارات ودودة ومساعدة المحتاجين من أقاربه وتوفير احتياجات شباب العائلة على قدر استطاعته؟! ألم يرَ عمي كيف صارت الصعوبات الاقتصادية على كل الطبقات؟! كنت سأحب عمي أكثر لو بذل جهده وماله في حل مشكلات عائلته بدلاً من إهدارهما في ذلك التفاخر؟!

وتذكر خالته الفقيرة الوحيدة التي لا تستطيع أخذ علاجها الشهري من التأمين الصحي؛ لعدم قدرتها على الذهاب إلى المستشفى، وعدم قدرتها على شراءه، ثم رأى أمام عينيه عمه الفقير وبناته المتفوقات بكلية الطب، وعدم قدرتهم على توفير أدوات الدراسة والذهاب الي الكلية من الأساس، ولم يغبْ عن ذهنه جارهم في ذات القرية الذي يحتاج لغسيل الكلى مرتين في الأسبوع، ولكنه ضمن قائمة طويلة، فنادراً ما يتمكن من المرتين أسبوعياً، والكثير من الأقارب يحتاجون المساعدة، ولكن يبدو أن حاجة عمي للتفاخر أكبر بكثير.

تلك أمي وذلك أبي

مثل من تُرك وحيداً فجأة في منتصف الطريق حين لفظته قافلته التي كان منتمياً إليها. تارة تتخيل ظل قافلتها واضحاً فيؤنسها، وأحياناً لا تجده فتبقى وحيدة؛ حتى بدأت الأوهام تعبر من خلالها قوافل لا تسمع النداء، أو طيف رجل كانت تحرسه، أو طيف آخر تتمنى لقاءه. تسكن ببيت صغير، ولكنها تسبح بأركانه كأنه بحر واسع. ويأخذها إلى الماضي البعيد، لتجده حلماً وتراه فيه، من تمنّت أن تعطيه عمرها إن أراد، وبصرها إن استطاعت، وعندما تحقق الحلم وبنى الحلم واقعه، دبّت في الحياة الكوابيس، بعد تمنّي عطاء الحياة والبصر أصبح انتزاعاً، انتزع منها سنوات عمرها، ولم يعطها فرحة واحدة. لم تحصل على حضن دافئ يطمئنها، ولا كلمة حنونة بنبراته الخشنة الجذابة، ولا لمسة من يديه على وجنتيها تتعمق معها النظرات بلون عيونهما البنية. وبعد أن كان البيت حلماً، بات الاهتمام حلماً أيضاً. لكن الحياة تحقق حلماً واحداً وتدخر الآخر لها، فتتولد منه أسطورة تغذينا بالخيال، ولا تذهب معنا لتساندنا بالواقع. فانتهى الواقع بانتهاء الحلم وبداية الكوابيس. حكت لي أمي أنه في أيام شتاء ماضية سافرت مع أبي وأخوتي إلى الإسكندرية، لقضاء بضعة أيام على شاطئ من شواطئ العجمي التي يتمتع بها الخيال وحده، هدوء تام في أيام الشتاء. تحكي أنها كانت سعيدة ترى زوجها وأبناءها على الأرض، وفي كل أفق تلك الحياة كأنها تملكها. كانت تنتظر أن تشعر بأن زوجها لها منذ أن تزوجت، وقد أتاها أخيراً ذلك الشعور في تلك الأيام القليلة التي سريعاً مضت وعاد الفراق المستمر، وعادت تتمنى من جديد أن تحظى بلحظة اهتمام.

لفظ أبي أمي من حياته بعد أن أنجبتني، وعندما كنا أسأل أبي "لماذا لا تحب أمي؟ لماذا لا تشتاق إليها؟"، كان يقول "لمثل هذا لا تسأل لماذا، فإنها كيمياء القلوب التي لا يفهمها إنسان. أنت تحب أمك لأنها أمك، ولا تسأل لماذا، وأنا لم أشعر يوماً بالانتماء لها، كما كانت هي لا تشعر بالانتماء لي، فهي دائماً قوية، وتتخطى كل أمور الحياة وحدها، فهي تنتمي لنفسها وقوتها وقدراتها على مواجهة الحياة". فكان هذا الشعور الغريب داخل أبي -الذي جعله يبتعد عنها بدلاً من أن يزداد حباً وإعجاباً بها- الذي جعلني أتيقن -ومن دون أي تعجب- أن أمي بالفعل عانت كثيراً، وعلى مرأى ومسمع من والدي، والذي فضل أن يلعب دور المتفرج في حياتنا، تركها تقود الحياة كلها وهو فيها، حتى لفظها من حياته، وكان عليه أن يلفظ ضعفه

أمام نفسه، ولم يفعل، وبينما أرى أمي تكمل مسارها. أجد نفسي أقول مفتخراً بها " تلك أمي، ثم أنكس، جهي لأقول ذلك أبي".

كيف فعلتها؟!

ما لي أراك والدنيا سواء!

وما للجمال بك أنت!

قل لو كانت الدنيا أعمارا

فأنت والله لي كله

وإن كان الجمال يملؤنا انبهاراً

فوالله قد أصبحت حالي منه جبال

أود أن أعتذر من سنوات عمري

التي مضت وأنا من دونه أكحل أبار

خارت قواي عندما

رأيت في قواك ما كان قط يهزمني

ضعت بصحرائك ونجيت بلا رغبة

ثم نُفيت برياضك بلا رجعةٍ

فإن في صحرائك نجاة من العطشِ

وفي رياضك نجاةٍ من الكللِ

فما لي أراك والدنيا سواء؟!

وما للجمال بك أنت؟!

كيف للحب أن يولد بنظرة؟! وكم تطول فترة حضانته في أرحام القلوب؟! وكم هي فترة رعايته داخل النفوس؟! وكيف يولد بلحظة واحدة؟! وكيف يُخلق قوياً؟! ويعيش طويلاً؟! وكيف له التحكم فينا وهو المولود الصغير ونحن الكبار؟! أهو خرافة تتحكم في وجداننا؟! أم هو إيمان مزروع في فطرتنا؟! أم هو الأمل في السعادة؟! أم هو السعادة نفسها؟! ما الحب؟

أعرف أنه لا تحتمي زهرة عباد العباد الشمس إلا بآشعة الشمس، ومن دونها تختبئ، ولا تحتمي الخطوط الجميلة إلا بلوحة، ومن دونها لا تكون جميلة، ولا تسعد العيون إلا بعيون من تحب، ومن دونها لا يكون هناك شيء. لكل شيء ملاذه الآمن كما الكلمات، فملاذها قلبها الذي يشعر.

تعجبت كيف رددت للحياة حياتها!

وكيف لونتها!

كيف فعلتها؟!

كيف لإنسان أن يكمن به جمال الفراشات؟!

وكيف يكون بستاناً من أجمل الأزهار؟

فأعطني منك باقة.

وقفْ بمكانك، حتى أتأملك أكثر.

فهل أنت أجمل العِبارات والكلمات؟!

أم أنك رواية مكتوبة بجزل؟!

أم أنك الحياة كلها؟!

كيف تكون برقة الأزهار وقوة محارب؟!

وكيف لأجوائك أن تكون نسائم فقط؟

اتركني أقول لك "حبيبي".

فبك نبض قلبي،

وبك تعافي الخرس.

وبك صارت الطرقات أجمل،

والكون أفسح.

إن أردت جمالاً فأنت ها هنا.

وإن أردت حناناً فأنت بعيد.

وهكذا حال الخيال.

أنت الواقع المرصع بالخيال.

فكيف فعلتها؟!

أنت نور غارق في سبات

بقلبي ولن أُوقظه.

أنت الإيمان بالحب،

بعد كُفري به.

أنت من بلغت حدودك،

وبلغت أنا حدودي،

فلن نلتقي.

فقد بَعدت الحدود، بوجودك.

فكيف فعلتها؟! وإنه

يتضح الحب في الكلمات ولو نطقنا كُرهاً،

وتسطع شمسه في العِبارات وإن كانت لغواً.

للحب بادرة تُطلق حرباً..

حرباً يخوضها القلب بطلاٌ.

للحب حوار بين الجوارح سراً،

لكن العيون لا تحفظ سراً ولا عهداً.

الحب حيرة لا تعرف قراراً ولا أمراً.

كوخ مظلم وإن أصبح للشمس بيتاً.

نهرٌ جارٍ بلا سداً،

ينفذ أسواراً ويسافر دهراً،

ويأتي لمن يحب بقبسٍ،

يذيب قلبه قبل أن يُعلَن.

وإنّ للحب رُسل تأبى أن تحجب خبراً.

فنعرف منها لماذا امتلأ الليل ضياء وكيف.

لتعلم أين ذهبت عوادم السيارات، وكيف فُض الزحام.

ومن أزاح الكراهية من مكانها ووضع كل هذا العطف.

ما هذا العالم الذي يتيحه لنا الحب؟

أين ذهب الضباب؟

وكم حيينا في العالم الآخر المظلم؟

وكم سنبقى في الضوء المستمر؟

الحياة، الحياة صوت بعيد ينادي، فهل كان ينادي؟!

هل كان من قبل ينادي؟

أم الآن بدأ؟

عبور تأخر كثيراً، ثم أتى بالأوان؟

فكيف يكون الحلم حقيقة والوهم ملموس؟

شطّ العقل والقلب معاً، فكيف ستكون الحياة في هذا العالم؟

هل من عودة؟ وهل لها طريق؟ أم ستُزال كل ملامح الطرق؟

هل سيبقى الضياء؟ أم سينهار كما ينهار الصمود الطويل؟

هل هناك قسوة غير ظاهرة؟

وماذا لو وجدت؟

هل ستكون أقوى من التي تحملناها؟

أم سنكون نحن ببقايا قسوة؟

أصبحنا هناك،

أصبحنا هناك، فما جدوى التفكير؟

وبماذا ستفيد الإجابات؟

وهكذا صارت الحياة بألوان قوس قزح،

فكيف فعلتها؟!

تمت بحمد الله

عن الكاتبة

سمر سيد محمود، من مواليد ٢٠-٧-١٩٨٠، حاصلة على بكالريوس علوم جامعة القاهرة تخصص مزدوج كيمياء وبيولوجي. أول تجربة في عالم الكتابة هذا العمل الذي طالما كان حلم يراود الخيال حتى أصبح واقعاً.

Samarsayedtshh2018@gmail.com

Samar_tsh@yahoo.com

اتصال واتس آب: ٠١١١٢٢٩١٦٥٦

تليجرام: t.me/tagsama

للمتابعة

/https://www.facebook.com/share/16nx4AHJvR